جمهـورية تركيا

جامعة جانكري كارا تكين

معهد العلوم الاجتماعية

العلوم الإسلامية الأساسية

الاغْتِـرابُ في يتيمةِ ابنِ زريـقٍ البغداديّ

الطالب

حسين صلاح الدين حسن سعيد

أطروحة الماجستير

المشرفة

د. حنان عبد الحميد عكو

جانكري – 2022

جمهورية تركيا

جامعة جانكري كارا تكين

معهد العلوم الاجتماعية

العلوم الإسلامية الأساسية

قسم اللغة العربية

الاغْتِـرابُ في يتيمةِ ابنِ زريـقٍ البغداديِّ

حسين صلاح الدين حسن سعيد

ORCID: 0000-0003-2516-0257

رسالة الماجستير

المشرفة

د. حنان عبد الحميد عكو

جانكري –2022

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات I

بيان أخلاقيات البحث العلمي III

الملخص IV

ÖZET V

ABSTRACT VI

الرموز IX

المقـدمة 1

مـنهج البحث 1

الدراسات السابقة 2

أهمية البحث 2

أهداف البحث 2

مشكلة البحث 3

خطة البحث 3

1.الفصل الأول 4

مفهوم الاغتراب، وخبر قصيدة ابن زريق 4

1.1.المبحث الأول: الاغتراب لغةً واصطلاحاً وتحليلاً 4

1.1.1.المطلب الأول: الاغتراب لغةً 4

1.1.2.المطلب الثاني: الاغتراب اصطلاحاً 5

1.1.3.المطلب الثالث: الاغتراب تحليلاً 6

1.2.المبحث الثاني: "لا تعذليه" في تاريخ الأدب 13

2.الفصل الثاني 17

الحقول الموضوعية والذاتية للاغتراب في القصيدة 17

2.1.المبحث الأول: الحقول الموضوعية 18

2.1.1.المطلب الأول: السفر والبعد عن الديار 18

2.1.2.المطلب الثاني: الفقر، والكدّ طلباً للرزق 20

2.2.المبحث الثاني: الحقول الذاتية 22

2.2.1.المطلب الأول: الضعف الشخصي 23

2.2.2.المطلب الثاني: فراق المحبوبة 26

3.الفصل الثالث 30

الاغتراب والأثر الإسلامي في القصيدة 30

3.1.المبحث الأول: مبادئ وأخلاق في وجه الاغتراب 30
3.11.المطلب الأول: أخلاق وسلوكيات فردية أو شخصية 33
3.1.2.المطلب الثاني: أخلاق وسلوكيات اجتماعية..... 44
3.2.المبحث الثاني: صادّات إسلامية للاغتراب، في القصيدة..... 59
3.2.1.المطلب الأول: اليقين والثقة بالله 60
3.2.2.المطلب الثاني: الحكمة، وشكر المنعم..... 63
3.2.3.المطلب الثالث: الصبر 66
3.2.4.المطلب الرابع: الاستسلام والتسليم لأمر لله..... 69
الخاتمة 71
المصادر والمراجع 73
KİŞİSEL BİLGİLERİ 79

بيان أخلاقيات البحث العلمي

أصرّح بأني قـد التزمت بعـناية الأخلاقيات العلمية والقواعد الأكاديمية أثناء إعدادي لأطروحة الماجستير المعـنونة (الاغْتِـرابُ في يتيمةِ ابنِ زريـقٍ البغداديّ)وذلـك ابتداءً مـن مرحلة تقـديم الاقتراح إلـــى أن انتهيت مـن هـذه الدراسة، وأن المعلومات المذكورة فـي الأطروحة حصلت عليها ضمـن إطار الأخلاقيات والتقاليد العلمية، وأنني قمت بالإشارة إلـــى جميع المصادر والمراجع الـتي اقتبست منـــها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر فـي هـذه الدراسة الـتي أعددتها وفقًا لقواعد كتابة الأطروحة، وأصرّح بأن جميع المصادر والمراجع الـتي رجعت إليها هي تلك الموضحة فـي قسم المصادر والمراجع.

الطالب

2022\ \

حسين صلاح الدين حسن

ÇANKIRI KARATEKİN ÜNİVERSİTESİ

SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ MÜDÜRLÜĞÜNE

Hüsseın Salahaldeen Hassan Saeed tarafından hazırlanan (Al-Ightrab in Shear Al-Yatimiyah Ibn Zuraiq Al-Baghdadi) başlıklı bu çalışma,5/07/2022 tarihinde yapılan tez savunma sınavı sonucunda (oybirliğiyle) başarılı bulunarak jürimiz tarafından Temel İslami Bilimler Anabilim Dalı'nda Yüksek Lisans tezi olarak ka bul edilmiştir.

TEZ JÜRİSİ ÜYELERİ (Unvanı, Adı ve Soyadı)

Danışman: Dr. HANAN AKKO İmza:

Üye: Dr. Öğrt. Üyesi Laith Motei Yahia Alazab İmza:

Üye: Dr. Öğrt . Üyesi İbrahim İbrahimoğlu İmza:

ONAY

Bu Tez, Çankırı Karatekin Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Yönetim Kurulunun ...../..../ 202.. tarih ve ..... sayılı oturumunda belirlenen jüri tarafından kabul edilmiştir.

Prof. Dr. Çoşkun POLAT

Enstitü Müdürü

الملخص

عـنوان الأطروحة: الاغتـراب فـي يتيمة ابن زريـق البغدادي

مُعِد الأطروحة : حسين صلاح الدين حسن سعيد

المشرف : د. حنان عبد الحميد عكو

القسم : العلوم الاسلامية الأساسية

نوع الأطروحة : ماجستير

تاريخ الموافقة : \ \ 2022

اتخذت الأطروحة من قصيدة الشاعر العباسي ابن زريق البغدادي مادة للبحث في موضوع أدبي فلسفي هو الاغتراب، والقصيدة معروفة في تاريخ الأدب العربي كتبها بعد أن خابت مساعيه في استجداء ممدوح سافر إليه في أرض الأندلس. جاءت الأطروحة فــي ثلاثة فصول وستة مباحث، الفصل الأول تناول الاغتــراب في معناه ومفهومه، وانتقل فيه إلى التعريف بقصيدة ابن زريق وتتبع خبرها في كتب التواريخ والأدب القديم. وفي الفصل الثاني وقف على مضامين الاغتراب وحقوله الموضوعية والذاتية. أمّا الفصل الثالث فكان معاينة لمضمون الاغتراب في القصيدة من مجهر النظر الإسلامي، فتناول أولا طائفة من الأخلاق الإسلامية الفردية والاجتماعية التي تسهم في عون المسلمين إذا تمسكوا بها على مواجهة الاغتراب وحالاته، ثم انتقل لاستقراء أخلاق الشاعر الإسلامية وسعيه المتهالك لصدّ الاغتراب الذي حاصر حياته. وانتهى الباحث من ذلك كله إلى خاتمة تمّ بها البحث.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، ابن زريــق، البغدادي، الشعر، لا تعذليه.

ÖZET

Tezin Başlığı : Al-Ightrab in Shear Al-Yatimiyah Ibn Zuraiq Al-Baghdadi

Tezin Yazarı : HÜSSEIN SALAHALDEEN HASSAN SAEED

Danışman : Dr.HANAN AKKO

Anabilim Dalı : Temel İslam Bilimleri Ana Bilim Dalı

Tezin Türü : Yüksek Lisans

Kabul Tarihi :

Yabancılaşıp gurbetçi olduğu yerde vefat eden şairin Endülüs'te geçim umuduyla Bağdat'tan ayrılıp dileğine gelen şairin hikayesini konu alan bir araştırma. Gurbetçi şiirlerinin prensesi olan yetim şiiri (40) satırda okuyan ve izin verenler için ağladı, ağladı ve hala söylüyor. Endülüs ve Abbasi döneminden günümüze göğüslerdeki muhafazası. Çağrılarını çıkarmaya çalıştık. Arap edebiyatında yabancılaşma ve yabancılaşma üzerine araştırmaların başlangıcını dilsel ve deyimsel olarak ele alan bölümlere dağıtın ve ardından şairin yaşamının doğum yeri açısından bir özetini verin. yabancılaşma içinde ölümüne kadar.

Araştırma, ilki bireyin hayatındaki en önemli etki olarak kabul edilen sosyal yabancılaşmanın olumsuz ya da olumlu olmak üzere üç bölümden oluşmaktadır. Şair ve toplumu arasındaki manevi ilişki duygusal yönden ve ne gibi sonuçlar doğurmaktadır? bundan uyumluluk veya uyumsuzluk ve ardından memnuniyet ve reddedilme tarafından takip edilen bir aidiyet duygusundan.

Araştırmada İbn Züreyk el-Bağdadî'nin şiirleri, çağdaşı ve kendisinden sonra gelen şairlerin çok sayıda mecmua ve şiirleriyle mukayese edilmiştir.

Anahtar Kelimeler: Şiir, İgtrab, İbn Zureyk,albağdadi, Eleştiri

Abstract

Thesis Title : Al-Ightrab in Shear Al-Yatimiyah Ibn Zuraiq Al-Baghdadi

Author : HUSSEIN SALAHALDEEN HASSAN SAEED

Supervisor : Dr. HANAN AKKO

Department : Department of Basic Islamic Sciences

Thesis Type : Master's Thesis

Date :

A research that deals with the story of the poet who was alienated and then died where he was expatriate. He left Baghdad in the hope of finding a living in Andalusia, so his wish came. His orphaned poem, which is the princess of expatriate poems in (40) lines, cried and cried for those who read it and allowed it, and she is still uttering it. Andalusia and its preservation in the breasts from its Abbasid era to the present day. We have made an effort to extract the connotations of alienation in its social, emotional and psychological forms, and distribute them to sections dealing with the beginning of the research on alienation in Arabic literature and alienation, linguistically and idiomatically, and then giving an overview of the poet's life in terms of place of birth until his death in alienation.

The research deals with three chapters, the first of which is social alienation, which is considered the most important influence in the life of the individual, negatively or positively. The spiritual relationship between the poet and his society from the emotional side, and what results from this from compatibility or dissonance and a feeling of belonging, which is followed by satisfaction and rejection.

Also in the research, the poetry of Ibn Zuraiq Al-Baghdadi was compared with a large number of collections and poems of poets who were contemporary with him or after him.

Keywords: Şiir, İghtrab, İbn Zuraiq, albaghdadi, Eleştiri

الرموز

تح: تحقيق

تر: ترجمة

ج: جزء

ط: طبعة

م: ميلادي

مج: مجلد

هـ: هجري

المقـدمة

الأدب العربـي القـديم كنـز ثقـافي ثـرّ، يفيـد بجـواهره الغواصـين فـي لجـج بحـاره، واتصـل قديمـه بحديثـه فـي نسـيج حضـاري لـم يهيـأ لكثيـر مـن الأمـم الأخـرى. لكـن قـدر هـذه الأمـة العربيـة بـل الإسـلامية أن تتلكـأ حينـاً، فيسـبقها الغـرب بنتاجـه العلمـي والفكـري والمـدني، وأن تتطـور لديـه صـنوف المعـارف والعلـوم، لكـن هـذا لا يعنـي أن نقـف أمامـه موقـف المسـتلب الضـعيف، فـإن جعبتنـا مـا زال فيهـا الكثيـر ممـا يـتعطش إليـه الغـرب فـي ظمئـه الروحـي والمعنوي.

فـي هـذا البحـث أحببـت أن أقـوم بدراسـة فيهـا صـدىً لدراسـات أدبيـة وفلسـفية بـدأت منـذ حـينٍ فـي أروقـة الثقافـة الغربيـة، حـين تـأزم الإنسـان فـي عيشـه، وبـدأت البحـوث المختلفـة تتنـاول أسـباب اضـطرابه، وسـجل الأدبـاء تأوهـاتهم ومشـاعرهم المتضـاربة والمتصـادمة مـع الحيـاة، فيمـا بـات يُعـرف ضمن مصلح "الاغتراب".

ويجـيء هـذا البحـث ضـمن دراسـات عربيـة كثيـرة تناولـت فـي أوقـات تاليـة نظيـر مـا كـان فـي الدراسـات الغربيـة، حيـث وجـدت هـذه فـي نتـاج الأدبـاء مـادة خصـبة لـدرس أثـر الاغتـراب فـي حيـاتهم، وصـوغهم الوجـداني والفكـري لنتائج ما يطوف بهم من تجارب مؤلمة.

مـنهج البحث

جـرى الباحـث فـي إعـداد هـذه الرسـالة وفـق أكثـر مـن مـنهج، فقـد لجـأ إلـى مـنهج تـاريخي حـين أرّخ لمفهـوم الاغتـراب ومعانيـه، وحـين اسـتقرأ المصـادر ليقـف علـى أصـل القصـيدة وروايـات أبياتهـا، ثـم اسـتعان بمـنهج وصـفيّ تحليلـي فـي مباشـرته لقصـيدة الشـاعر ليحلـل جوانـب الاغتـراب

الموضـوعية والذاتيـة, وكـذلك حـين راح ينظـر فـي العناصـر الإسـلامية فـي القصيدة.

الدراسات السابقة

إذا كـان المقصـود بـالجهود السـابقة بحوثـاً متصـلة بفكـرة الاغتـراب فـي القصـيدة المعنيّـة للشـاعر ابـن زريـق؛ فـإن مـن دواعـي فخـر الباحـث أنـه يقـدم دراسـة يظنهـا جديـدة فـي هـذا المجـال، إذ يتنـاول مفهـوم الاغتـراب ويُتبعـه بالـدرس والتحليـل مـن خـلال القصـيدة. وأمـا موضـوع "الاغتـراب" ذاتـه فـلا شـك أنـه قـد مـرّ عليـه حـين مـن الدراسـات الأدبيـة والفلسـفية فلـم يعـد معهـا جديـداً ولا مبتكـراً. ولا يـنقص ذلـك مـن قـدر جهـد الطالـب فيمـا يـرى، إذ إن عملـه يستمد مشروعيته وحماسه من التطبيق العملي في دراسته الأدبية.

أهمية البحث

يـأتي البحـث ليسـلط الضـوء علـى قصـيدة تُعـدّ مـن عيـون الشـعر العربـي، وذلـك مـن خـلال مفهـوم فلسـفي أدبـي هـو الاغتـراب. إن مـن أعظـم مهـام الدراسـات الأدبيـة التـي نرجـو أن تكـون هـذه واحـدة فـي عـدادها، أن تسـبر تلـك الدراسـات غـور الإنسـان وعوالمـه، وأن تعينـه علـى كشـف محتوياتهـا، وتمنحـه القـدرة علـى تحديـدها وتسـميتها، وذلـك بغيـة الارتقـاء بـالفرد وبأحلامـه، وبطريقـة أدائـه فـي المجتمـع الإنسـاني، فلـيس شـيء أخطـر علـى الإنسـان مـن عـدوّ الجهـل، ومـن أهميـة البحـث الوقـوف عمليـاً ومـن خـلال بنـاء القصـيدة علـى الوسائل الفنية والأدوات التي يملكها الشاعر للتأثير في قرائه والمتلقين لفنّه.

أهداف البحث

هـدَف البحـث إلـى تقـديم فكـرة عـن معنـى الغربـة ومفهـوم الاغتـراب، والوقـوف علـى أنواعـه وأشـكاله، وإلـى تسـليط مجهـر البحـث الأدبـي والفكـري عـن مضـامين الاغتـراب الموضـوعي والـذاتي فـي قصـيدة ابـن زريـق، وإلـى

تلمّس الأثر الإسلامي في مواجهة ذلك الاغتراب، وذلك كله بعد النظر في رواية القصيدة وأصلها وعدد أبياتها.

مشكلة البحث

يسعى البحث للإجابة عن تساؤلات هي: ما معنى الاغتراب قديماً وحديثاً؟ ما مفهومه؟ وما مضامينه؟ وكيف وصلت إلينا هذه القصيدة؟ وماذا نجد فيها من صدى لمفهوم الاغتراب وأبعاده في قصيدة ابن زريق "لا تعذليه"؟ وما الحقول الموضوعية والذاتية لذلك الاغتراب؟ وهل حاول الشاعر أن يواجه هذه الحالة الاغترابية بما يحمل من روح الإيمان وعقيدة الإسلام؟ وهل تحمل نصوص الإسلام أصلاً موقفاً معيناً من تلك الحالات الإنسانية المتصلة بالاغتراب؟

خطة البحث

قُسم هذا البحث إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدمة، وينتهي بخاتمة وقائمة للمصادر وللمراجع.

الفصل الأول: مفهوم الاغتراب، وخبر قصيدة ابن زريق

المبحث الأول: الاغتراب لغةً واصطلاحاً وتحليلاً

المبحث الثاني: "لا تعذليه" في تاريخ الأدب

الفصل الثاني: الحقول الموضوعية والذاتية في اغتراب الشاعر

المبحث الأول: الحقول الموضوعية

المبحث الثاني: الحقول الذاتية

الفصل الثالث: الاغتراب والأثر الإسلامي في القصيدة

المبحث الأول: مبادئ وأخلاق في وجه الاغتراب

المبحث الثاني: صادّات إسلامية للاغتراب، في القصيدة

خاتمة البحث

المصادر

1.الفصل الأول

مفهوم الاغتراب، وخبر قصيدة ابن زريق

في هذا الفصل سنقف على معنى الاغتراب والغربة في اللغة، وعلى مفهومه الاصطلاحي، وعلى مضامينه وأبعاده، وننتقل بعد ذلك إلى القصيدة موضوع البحث، فنطّلع على خلاصة الروايات التي أوردتها كتب الأدب والتواريخ للقصيدة، فنحصر أبياتها وننظر في نسبتها، تمهيداً لدراسة مضمون الاغتراب في القصيدة.

1.1.المبحث الأول: الاغتراب لغةً واصطلاحاً وتحليلاً

1.1.1.المطلب الأول: الاغتراب لغةً لمادة غرب معانٍ عديدة لكننا نقف على ما يهمنا منها في هذا الموضوع، فقد جاء في لسان العرب: غرَب يغرُب غرْباً، الذهاب والتنحي عن الناس، والغَربة والغَرب: النَّوى والبُعد، وغرّب في الأرض إذا أمعن فيها، وغُربة النوى: بُعدُها. ودارُهم غَربة: نائية، والتغريب: النفيُ عن البلد. والغُربة: النزوح عن الوطن، وغريب: بعيد عن وطنه، والغريب الوحيد الذي لا

أهل له عنده. واغتربوا لا تضووا: تزوّجوا إلى الغرائب من النساء غير الأقارب..[1]. فالمتأمل في هذه المعاني يجد القاسم بينها هو القطيعة الجسدية والبعد المادي عن البشر أو عن المكان، وهي قطيعة تشي بحمل صفات سلبية؛ فالوحدة - بمعنى مقابل للجماعة – كثيراً ما تأتي بسوء، والذئب كما نعلم يأكل من الغنم القاصية، أي البعيدة[2]. ومن هذه الإيحاءات ننطلق نحو التطور الدلالي للفظ الاغتراب، وانتقاله إلى المعاني الاصطلاحية، وما ذاك إلا لطاقته ولقدرته على تحمّل العميق من المخزون الإنساني كما يظهر، ولحيويّته ومرونته في التعبير.

1.1.2.المطلب الثاني: الاغتراب اصطلاحاً

في الاصطلاح لا بد من الإشارة أولاً إلى أن هذا المصطلح بمفهومه الفلسفي والأدبي اليوم هو من إفرازات الفكر الأوربي، فلا غنى إذن عن النظر في أصل ابتكاره، والرجوع إلى ميلاده ثمة قبل تلمس معانيه وإسقاطاته في الثقافة العربية ونتاجها الأدبي، قديمه وحديثه. وقبل الخوض في المعاني الاصطلاحية نبدأ بالتعريج على لفظ "الاغتراب" من حيث كونه ترجمة لغوية؛ فهذا اللفظ ترجمة لكلمة Alienation الإنجليزية، ولكلمة Aliénation الفرنسية، وكلتاهما مشتقتان من أصل يوناني هو Alienare، ويعني نقل ملكية ما إلى شخص آخر، أو يعني الإزالة أو الانتزاع أو الإزالة[3]، وفعل الاغتراب كذلك مأخوذ من كلمة لاتينية أخرى Alienus ويعني الانتماء إلى «الآخر»، وهذه الأخرى مشتقة من كلمة Alius بمعنى «الآخر» أو «آخر». وقد استخدمت الكلمة اللاتينية (Alienatio) –قديماً– للتعبير عن الإحساس الذاتي بالغربة أو الانعزال Detachment سواء عن الذات أو الآخرين[4].

---

[1] انظر: ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم، لسان العرب(القاهرة:دار المعارف، القاهرة، دت). مادة "غرب".

[2] في الحديث الشريف: "..فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية". النسائي، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، تح رائد بن صبري(الرياض:دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض،2015م). كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، رقم الحديث 847.

[3] انظر: مبروك، أمل، مشكلة الإنسان دراسة في الفكر الوجودي،(القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، ط2، 2004م). ص81. ورجب، د. محمود، الاغتراب سيرة مصطلح(القاهرة:دار المعارف، ط2، 1988م). ص33

[4] انظر: مبروك، مشكلة الإنسان دراسة في الفكر الوجودي. ص82.

لقد تطورت معاني "الاغتراب" حتى إنها عانت أحياناً من الغموض إلى درجة تكاد تغيب معها قيمتها العلمية المحددة. وسبب ذلك أن كثيراً من الباحثين الميدانيين وجّهوا هذا المصطلح إلى معنى انعدام السلطة والانخلاع، والانفصام عن الذات، والاستياء أو التذمر والعداء، وانعدام المغزى والإحباط، والعزلة[5].

وفي الطرف المقابل لهذه الإسقاطات بدا الاغتراب أحياناً حلماً رومنسياً بأرض جديدة، وبعالم مثالي جديد، عالم مليء بالحلم والجمال، والتمرد على المادة والصراع حولها، عالم الألفة والمحبة والبساطة[6]. وفي هذا السياق ربما كان الشاعر الألماني العظيم جوته أول من اغترب أدبياً ونفسياً، حصل هذا حين هُزم نابليون في معركة واترلو 1815م، وبدا أنه ضاعت آمال الطبقة البرجوازية الجديدة وجماعات المثقفين في التغيير، فعمّ اليأس من إمكان إزاحة الأسر والطبقات المتحكمة المسيطرة فكانت الرحلة إلى الشرق واقعاً أو تخيلاً، بدأها جوته في ديوانه وسار على منواله شعراء وقصاصون وحالمون بمبادئ المثالية، وتجلت هذه الظاهرة في أتم صورها عند أصحاب النزعة الرومنتيكية، وخاصةً الألمان منهم والفرنسيين[7].

1.1.3.المطلب الثالث: الاغتراب تحليلاً

أولاً: لم يغب الارتباط بين لفظ الغربة أو الاغتراب في الثقافة العربية القديمة، وبين الحديث عن مشاعر نفسية قاتمة، أو عرض لأحداث مؤلمة من أهمها الموت، فإذا كان هذا اللفظ يعني النوى والبعد عن المكان، والنزوح عن الأرض، والانفصال عن الناس؛ وهذا كله معنى اجتماعي، فلا شك أن هذا البعد لا يتم بدون مشاعر نفسية تلازمه كالحنين والألم والقلق. ومن أمثلة ذلك ما قاله الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم حين استولى عليه شعور بالعجز أمام سطوة الموت القادم لا

---

[5] انظر: النوري، قيس، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد الأول، 1979. ص13.

[6] انظر: العبد الرحمن، د. سعاد عبد الوهاب، الاغتراب في الشعر الكويتي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت(الكويت، الحولية الرابعة عشرة، 1414ه-1994م). ص24.

[7] انظر: لوكاتش، جورج، جيته الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة عبد الرحمن (القاهرة:دار النهضة العربية، ، ط1942م). ص6-7.

محالة، حيث لا بد من الفراق والبعد، وتلك غربة ستنال كل أحد من البشر لا محالة. يقول[8]:

ثَوى في مُلحَدٍ لا بُدَّ مِنهُ كَـــــفى بِالمَوتِ نَأيًا وَاغتِرابا

رَهينَ بِلىً وَكُلُّ فَتىً سَيَبلى فَأَذري الدَمعَ وَاِنتَحِبي انتِحابا

ولعل من أوضح اللوحات الشعرية الشاملة في التعبير عن مأساة الاغتراب ما ورد في قصيدة مالك بن الريب، الشاعر الأموي وهو يرثي نفسه، فقد ذكر الغربة وتناول معها مشاهد البعد والفراق، وعبّر عن ذلك بإبداع تصويري مبتكر والألم يعتصر وجدانه، وهو إذ يتخيل نفسه مدفوناً في قبره يجد أنه بات غريباً عمّا حوله هناك، بعيداً عن ناسه وأرضه، يقول[9]:

غريبٌ بعيدُ الدار ثاوٍ بقفرةٍ يدَ الدهرِ معروفاً بأن لا تدانيا

ويرسم لنا ببراعة منقطعة النظير صورة القوم وهو يدفنونه، ويتخيلهم ينادونه على الطريقة الجاهلية في أثناء الدفن بـ "لا تبعد"، لكنه يردّ عليهم بأسى عميق ودهشة مريرة بأنه ليس أبعد من ذلك المكان الذي يودعونه فيه، يقول[10]:

يقولون: لا تبعَد، وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا؟

ويحزّ في نفسه، ويزيد في وحشته وضعفه وانكساره، ألا يكون ثمة نسوةٌ يتفجعن على فقده بعد الموت، لأنه سيموت في أرض نائية عن أهله، فهو يرى في دموع الباكيات والباكين أُنساً سيكون محروماً منه في غربته تحت تراب بعيد مقفر، يقول[11]:

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرُّدَينيّ باكيا

---

[8] ابن أبي خازم، بشر، ديوان بشر بن أبي خازم، تح د. عزة حسن(دمشق:مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، ، 1960م). ص27.

[9] القيسي، د. نوري، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره(الكويت: مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، الكويت، مج15ج1، 2007م). ص95.

[10] القيسي، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره،. ص93.

[11] القيسي، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره،. ص90.

فتلك صورة كلية من الشعر العربي القديم، ذات أجزاء، عبّرت بشكل وافٍ عن أحد الفهوم المحورية لمعنى الاغتراب الذي اتسعت مدلولاته وفضاءاته الفلسفية والأدبية، من دون أن يتوسل الشاعر بشيء من الفلسفة وأدواتها.

ثانياً: أنواع الاغتراب وإذا أردنا تأطير الاغتراب في أشكال مستقلة، فيمكن تحديد الأنواع الرئيسية للاغتراب بما يأتي:

1- الاغتراب الثقافي وفيه يتم انزواء الفرد وابتعاده تدريجياً أو في المحصلة، عن الثقافة الخاصة بمجتمعه. إن ثقافة المجتمع تتكون من التقاليد والعادات والقيم السائدة فيه، وكلّ مجتمع يعاقب أو يمنع بطريقته مخالفة المعايير التي تضبط سلوك أفراده، وهنا نجد الفرد ينفر من هذه العناصر ويرفضها ولا يلتزم بها، ويفضّل كل ما هو غريب وأجنبي عنها[12].

2- الاغتراب الاجتماعي وهنا يفقد الفرد الشعور بالاندماج مع المحيط، ويستولي عليه الشعور بعدم التفاعل بين ذاته وذوات الآخرين، ويقع في ضعف العلاقات الاجتماعية، أو ضعف الإحساس بالمودة والألفة الاجتماعية معهم، وينتج ذلك عن الرفض الاجتماعي الذي يعيش في ظله الإنسان في افتقاد دائم للدفء العاطفي[13].

وهو اغتراب عن المجتمع والخروج على معاييره، والشعور بالعزلة والهامشية الاجتماعية والمعارضة والرفض والعجز عن ممارسة السلوك الاجتماعي العادي[14].

3- الاغتراب الاقتصادي هذا المفهوم درج على يد كارل ماركس، وهو يُشير إلى شعور العامل بالانفصال عن عمله، وذلك على الرغم من وجوده البشري بجسمه في مقرّ عمله، وهذا الإحساس بالانفصال يولّد لديه شعوراً بالعجز والخوف والتشاؤم من المستقبل، ويصبح مغترباً عن عمله اليومي، وهذا بلا شك يقوده لأن يغترب أيضاً عن نفسه وإمكانياته الخلّاقة وعلاقاته الاجتماعية، فيفقد إمكانياته الفاعلة كما

---

[12] انظر: زهران، د. سناء حامد، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب(القاهرة:عالم الكتب، ط1، 2004م). ص115.

[13] انظر: النوري، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً. ص33.

[14] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص110.

يفقد علاقاته الاجتماعية، وهذا الذي يبعده عن الآخرين ويجعل منه كائنًا غريباً وبعيداً عن إنسانيته[15].

4- الاغتراب السياسي والمقصود هنا شعور الفرد بالعجز تجاه المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية، فهو شعور المرء بعدم الرضا عن القيادة السياسية وعدم الارتياح إليها، وبالرغبة في الابتعاد عنها وعن التوجهات السياسية الحكومية وعن النظام السياسي جملةً، وهو يعكس شعور الفرد بأنه ليس جزءاً من العملية السياسية وأن صانعي القرارات السياسية لا يقيمون له وزناً ولا اعتباراً[16]. فهو يشعر بالتهميش والعجز عن التأثير في المجال السياسي وأنه عاجز عن إصدار قرارات أو مواقف سياسية وفاقد لمعايير تشكيل نظام سياسي، وانسجاماً مع ذلك هو غير مطمئن، ولا يشعر بالانتماء لما فُرض عليه من الوضع القائم.

ويتوسع هذا المفهوم لدى بعضهم ليرى أن الاغتراب السياسي يشمل الاتجاهات السلبية نحو عموم هيئات المجتمع ولا يقف عند حدّ الاغتراب عن السلطة السياسية.

وثمة من يرى في هذا المجال، ووفق بعض الميول الأيديولوجية، أن المجتمع الحديث قد دعم انفصال الإنسان عن الطبيعة وعن ذاته، وذلك من خلال اعتماده الملكية الخاصة التي أدّت إلى عدم المساواة[17]. إن هذا المفهوم الأخير يبدو أقرب إلى الاغتراب الاقتصادي منه إلى الاغتراب السياسي، والواقع أن الأنظمة الاقتصادية انعكاس للقرارات السياسية في العادة؛ إذ إن الإنسان المغترب بفعل تلك العوامل سيحمّل النظام السياسي مسؤولية تلك الآثار ويغترب عنه.

5- الاغتراب الديني يمكن القول إن الأديان كلها تناولت موضوع الاغتراب الديني، وذلك في مجال التعبير عن الانفصال والبعد عن الذات الإلهية، وفي الإسلام يأخذ الاغتراب المفهوم ذاته، حيث يعني به الابتعاد عن الله.

---

[15] انظر: زليخة، جديدي، الاغتراب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، العدد8، جوان، 2012. ص350.

[16] انظر: خليفة، عبد اللطيف محمد، دراسات في سيكولوجية الاغتراب(القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 2003م) ص26.

[17] انظر: خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب. ص36.

وإذا كان جوهر فكرة الاغتراب هو التصادم وعدم التناغم فنستطيع أن نشخّص الاغتراب الديني في الإسلام في ثلاثة أشكال هي: اغتراب المسلم بين الناس في المجتمعات غير المسلمة، واغتراب المؤمن بين المسلمين المقصرين الذين لا يعبؤون بتطبيق تعاليم الدين، واغتراب العالم المسلم بين المسلمين الجهلة، أو بين خصومه المذهبيين[18].

والاغتراب الديني هو أيضاً ما يمكن تسميته بالحاجة الروحية، إذ إن تلك الحاجة الروحية تقوم بحثّ الإنسان على البحث عن إله يقدسه ويعظّمه، ويلجأ إليه ويرتبط به، ويقوم بأداء ما يرضيه من العبادات[19].

يمكن القول إن هذا يفسّر ويعلل حال الإنسان في القبائل البدائية التي أوجدت لنفسها قوى غيبية خفية تؤمن بقدرتها على النصر والحماية وتقديم العون، والمعاقبة والغفران، ورمزت لها بأصنام وأشجار وأيام وأزمان وأقامت لأجلها المعابد وقدَّمت القرابين.

6- الاغتراب النفسي تنوعت تعريفات علماء النفس للاغتراب النفسي وذلك بحسب وجهة نظر كل منهم، والزاوية التي يرى الموضوع من خلاله، فمنهم من عرّفه بأنه "حالة نفسية يشعر الإنسان من خلالها بانفصاله عن الآخرين وعدم الانسجام معهم، وعدم القدرة على التكيُّف الاجتماعي مما يضطره إلى الانعزال"[20].

ويرى وايت أن الاغتراب النفسي هو اغتراب بالضرورة عن الذات، إذ إنه يرتبط ارتباطاً موجباً بالاغتراب عن المجتمع، وهذا يؤدي بالضرورة إلى أن الاغتراب هو غربة عن الذات[21].

ويرى أريكسون أن الاغتراب النفسي يمكن تشخيصه بأنه عدم الشعور بتحقيق الهوية، وما ينتج عن ذلك من أعراض، "فالفرد الذي لم تحدّد هويته بعدُ يعتبر

---

[18] للاستفاضة في هذا الجانب يمكن مراجعة مبحث فكرة الاغتراب في الإسلام. رجب، الاغتراب سيرة مصطلح. ص177 وما بعدها,

[19] انظر: خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب. ص37.

[20] النوري، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً. ص18.

[21] انظر: يوسف، محمد عباس، الاغتراب والإبداع الفني(القاهرة:دار غريب للطباعة والنشر، 2005م)ص38.

مغترباً؛ لأنه يفقد الإحساس بالأمن، وهذالناتج عن عدم تحديد الهدف المركزي لحياته"[22].

في الواقع إن أنواع الاغتراب هذه لا يمكن فصلها بعضها عن بعض بصورة مستقلة، حيث إنها تشكّل وحدةً من المشاعر التي يعيشها الإنسان ويؤثر بعضها في بعض، فالاغتراب السياسي مثلاً يؤدّي إلى تشوّه في نمو الشخصية وهو كذلك يؤدّي بدرجات متفاوتة إلى انفصام عرى العلاقات الاجتماعية وهكذا؛ لذا كان الاغتراب ظاهرة تتأثر بجوانب عديدة، فكان لها مجموعة من الأبعاد.

ثالثاً: ملامح الاغتراب ومكوناته

الاغتراب ظاهرة فيها أكثر من مكون فهي بذلك متعدّدة الأبعاد حيث نسمي مكوناتها الأساسية بالأبعاد، قام بعض العلماء بتصنيف أبعادها تلك بغية تحديدها وتشخيصها:

1- اللامعيارية: تمثّل فقد المعيار الحرمان منه، وعدم وجود نسق منظم للقيم الاجتماعية أو المعايير التي تمكّن الفرد من اختيار الفعل الأكثر اتّفاقًا مع وضع معين[23]؛ ذلك أن الفرد المغترب هنا يرفض المعايير الاجتماعية ولا ينصاع لها.

2- العزلة الاجتماعية: هنا نرقب انسحاب الفرد وانفصاله عن تيار الثقافة السائدة في مجتمعه، وهذايجعله يشعر بالانفصال عن الآخرين، ويتملكه وإحساس بعدم الانتماء وباللامبالاة، وذلك بطريقة يشعر فيها بأنه وحيد منفصل عن نفسه ومجتمعه[24].

3- التشيُّؤ: شعور الشخص بأنه قد فقد هويته، وأنه مجرّد موضوع أو شيء أو سلعة، وبأنه لا يملك مصيره، ويشعر في ذلك أنه مقتلع الجذور، غير مرتبط بنفسه أو بواقعه[25].

---

[22] انظر: سري، د. إجلال محمد، الأمراض النفسية الاجتماعية(القاهرة، عالم الكتب للنشر والتوزيع، 2003م). ص114.

[23] انظر: يوسف، الاغتراب والإبداع الفني. ص23.

[24] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص404.

[25] انظر: عيد، د. محمد إبراهيم، علم النفس الاجتماعي(القاهرة:مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2000م).ص227م.

4- اللامعنى: وهنا يتملك الفرد إحساس بأن الحياة شيء لا معنى له، وأن المنطق الذي تسير وفقه هو منطق غير معقول، وبالتالي يشعر الفرد بالتغرُّب لأن حياته كما يرى لا جدوى منها، فيفقد الحيوية في الواقع، وتتكون لديه مشاعر اللامبالاة والفراغ الوجداني[26].

5- اللاهدف: يحدث هذا حين تمضي الحياة تمضي بغير غاية أو هدف، وهنا يفقد الفرد الهدف من عمله ومن وجوده، ويضيع معنى الاستمرار في الحياة، وينتج عن ذلك ويترتّب عليه اضطراب في سلوك الفرد وأسلوب حياته مما يؤدّي إلى تخبُّطه في الحياة ويضل الطريق[27].

6- العجز: حالة تستولي على صاحبها فيسيطر عليه الشعور بألَّا حول له ولا قوة، وفيها يعجز الفرد عن السيطرة على رغباته وتصرفاته ويفتقر إلى الشعور بأنه يملك قوة حاسمة ومقرّرة في حياته، ويفقد الشعور بالتلقائية والمرح وحب الحياة[28].

7- غربة الذات: حالة يدركها الفرد عن ذاته، أي إنه صار نافرًا أو مغتربًا عن ذاته، وأصبحت الذات كينونة مغتربة، لا تعرف ماذا تريد، وتؤول إلى عدم القدرة على التواصل مع ذاته ومع الآخرين[29].

8- التمرد: ويعني شعور الفرد بالنفور والرفض لكل ما يحيطه، وهذا يدفعه إلى ممارسة العنف، وحصول نزعة تدميرية تتَّجه إلى خارج الذات في شكل سلوك عدواني، ووجود نزعة أخرى تتَّجه إلى داخل الذات تكون على شكل نكوص وعزلة وعدوان موجَّه إلى الذات[30].

9- الرفض: اتِّجاه سلبي معادٍ للآخرين، فيه نبذ لبعض أشكال السلوك، ويتضمّن الرفض الاجتماعي، والتمرّد على المجتمع، وعدم التقبُّل الاجتماعي وينتقل إلى رفض الذات[31].

---

[26] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص109.
[27] انظر: عيد، علم النفس الاجتماعي. ص227.
[28] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص109.
[29] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص109.
[30] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص110.
[31] انظر: زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب. ص110.

1.2.المبحث الثاني: "لا تعذليه" في تاريخ الأدب

تلقى الخيال والوجدان العربي قصيدة "لا تعذليه" بتعاطف وتأثر كبيرين، وهذا ما جعل تلك القصيدة تحتل مكانة عالية قل نظيرها في التراث الشعري. ويمكن القول إنه يصعب الفصل بين سيرة ابن زريـق وبين حكاية القصيدة اليتيمة، فأحدهما مرتبط بالآخر بحسب ما يرى الباحث، إذ لولا القصيدة الـتي نسبت إليه لما عُرف ابن زريـق. فلعلّ مـن قـدّم الحديث عـن القصيدة ليـس بمخطئ ، إذ هي الميراث الوحيد لشاعر الواحدة – القصيدة – الـتي لـم يعثر عـلى أخت لها فـي مسيرة ابن زريـق الغامضة المغتربة.

على أن هذا التعاطف الشعبي الذي حوّل القصيدة وصاحبها إلى ما يشبه "الأسطورة"، ليس دليلاً كافياً على صحة نسبة القصيدة بأبياتها إلى رجل بعينه، بل على العكس يمكن القول من وجهة نظر منطقية إن شيوع خبر ما بين الناس قد يكون مدعاة للزيادة فيه والنقص منه، وإلى الخلط في هوية صاحبه، ونحن يمكننا أن نتتبع تلك الأبيات وورودها في مصادر الأدب وتاريخه، فهذا أبو حيان التوحيدي (-414ه/1023م) يخبر فـي كتابه (الإمتاع والمؤانسة) عن جارية كانت تنشد أبياتاً من القصيدة، فلم ينسبها إلـى ابن زريـق ولا غيره، ويكفي أنها قد صارت جزءاً من التراث الوجداني الشائع بين الناس، وهي:

أستودع الله فـي بغداد لي قمراً بالكرخ مـن فلك الأزرار مطلعهُ

ودّعتهُ وبودّي لو يودّعـنـي صـفو الحـياةِ وإني لا أودّعـهُ [32]

والثعالبي المعاصر للتوحيدي (-429ه) يورد أربعة أبيات مـن قصيدة ابن زريـق فـي كتابه (يتيمة الدهر)، لكنه ينسبها إلـى الشاعر الوأواء الدمشقي، وهي تضم البيتين السابقين يليهما هذا البيتان:

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحىً وأدمعي مستهلاتٌ

وأدمعهُ

[32] التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة(المملكة المتحدة:مؤسسة هنداوي، دت). ص362.

لا أكذب اللهَ ثوب الصبر مـنخرقٌ عـني بفـــــرقته لكني أرقّـــــــــعهُ[33]

وبالرجوع إلى ديوان أبي الوأواء (-390ه تقريباً) نجد الأبيات فعلاً قد دوّنها المحقق د. الدهان في الزيادات منسوبةً للوأواء بدون تعليق أو إشارة إلى ابن زريق[34] .

يقود البحث المستقصي إلى أن الحسين السراج (-500ه/1106م) صاحب (مصارع العشاق)[35]، ربما كان أول راوٍ أورد ثلاثة عشر بيتاً من القصيدة نسبها صراحةً إلى ابن زريق البغدادي، وجاء بعده الصفدي (-764ه) صاحب (الوافي بالوفيات)، فأورد القصيدة منسوبة للشاعر نفسه في واحد وأربعين بيتاً بدون خبر عن سبب قولها[36]، ثم ذكرها السبكي (-771ه) في طبقاته فأورد ثمانيةً وثلاثين بيتاً نسبها إليه[37]، فلم يكن لأحد بعدُ مزيدٌ على ذلك، وقد قدّم السراج والسبكي للأبيات بخبر مضمونه واحد، متطابق الألفاظ بينهما أحياناً، وإن جاء في طبقات السبكي مفصلاً، وكلاهما نسب الأبيات إلى "أبي الحسن علي بن زريق الكاتب البغدادي"[38]، حيث ذكر السبكي أنه مـن أهل بغداد، وقد قصد أبا عبد الرحمـن الأندلسي وتقرب إليه، فأراد أبو عبد الرحمـن أن يختبره فأعطاه شيئاً قليلاً، فقال ابن زريق: إنا لله وإنا إليه راجعون، سلكتُ البراري والقفار، والمهامه والبحار إلـــى هذا الرجل فأعطاني هـذا العطاء! فضاقت نفسه غمّاً واعتل ومات. وانشغل عن أمره الأمير الأندلسي أياماً عدةً، ثم ذكره فسأل عنـه فخرجوا يطلبونه حتى انتهـوا إلـــى الخان الـذي كان فيه، وسألوا عنـه فقيل لهم: إنه كان هنا فـي هـذا البيت، ومذ أمس لـم

[33] الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح د. مفيد قميحة(بيروت: دار الكتب العلمية، ، ط١ ،1983م.) ج1ص340.

[34] انظر: الوأواء، أبو الفرج، محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، ديوان الوأواء الدمشقي، تح د. سامي الدهان(بيروت: دار صادر،ط2، ، 1993م). ص273.

[35] السراج القاري، جعفر بن أحمد، مصارع العشاق(المملكة المتحدة:مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، دت) ج1ص23.

[36] الصفدي، صلاح الدين، خليل بن إيبك، الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط ورفيقه(بيروتت: دار إحياء التراث العربي، ط1، -2000م)، 29جزءاً. ج21ص77-78.

[37] انظر: السبكي، تاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تح د. محمود الطناحي ورفيقه(السعودية: هجر للطباعة والنشر، ط1413ه-1992م) 10أجزاء. ج1ص308.

[38] ظلت سيرته مهملة غامضة، ولم يرد اسمه في كتب التراجم، ومنها الأعلام لخير الدين الزركلي.

يبصره أحد، فصعدوا إليه فدفعوا الباب، فإذا بالرجل ميت وعند رأسه رقعة فيها من تلك الأبيات، فلما بلغ عبد الرحمـن ما حصل، ووقف عـلى الأبيات فـي الرقعة بكى حتى اخضلّت لحيته بالدمع، وقال: وددت أن هـذا الرجل حيٌّ وأشاطره نصف مالي، وكان فـي رقعة الرجل مـنزله ببغداد فـي موضع كذا المعروف بكذا، فأرسل إلى أهل بيته خمسة آلاف دينار صارت إلى يد القوم، وعرّفهـم مصير الرجل[39]. وهذه الأبيات كما ذكرها السبكي[40]:

لا تَعذُليه فإنَّ العَذلَ يُولِعُهُ قد قُلتِ حَقاً ولكِنْ ليس يَسمَعُهُ

جاوَزتِ في لَومهِ حَدّاً أضَرَّبِهِ مِن حيث قَدّرتِ أنَ اللومَ يَنفَعُهُ

فَاستَعمِلي الرّفق فِي تَأنيبهِ بَدَلاً مِن عنفِهِ فَهْوَ مُضنى القلبِ مُوجَعُهُ

قـد كانَ مُضطَلَعاً بِالبَينِ يَحـمِلُهُ فَضُلِّعَتْ بِخُطوبِ الدهـرِ أضـلُعُهُ

يَكـفِيهِ مـِن لَوعَةِ التَفنـيد أنَّ لَهُ مِنَ النّـوى كُلَّ يـوم ما يُروعُـهُ

مـات آبَ مِن سَفَـرٍ إلّا وأزعَـجَهُ رَأيٌ إلى سـَفَرٍ بالعـَزْمِ يُجْمِعـُهُ

كـأنما هـو في حـلٍّ ومرتحـلِ مُـوكَّلٌ بِفَـضـاءِ اللهِ يَذرَعُـهُ

إنّ الـزَماعَ أراهُ في الرَحِـيلِ غِـنىً ولو إلى السِّنْد أضحى وَهْوَ يُزْمِعُهُ

تأبى المـطامعُ إلا أن تُجَشـّمه للـرزق كـداً وكم ممَّن يودّعُـهُ

[39] انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى. ج1ص311-312.
[40] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى. ج1ص308-311.

وَما مُجـــــــــــاهَدَةُ الإنـــــــسانِ واصِـــــلَةً رزقَاً وَلا دَعَةُ الإنـــــــسانِ تَقـــــــــطَعُهُ

والله قســـــــــم بَينَ الخَـــــــــلقِ رزقَهُمُ لَم يَخـــــــــلُق اللهُ مخـــــــــلوقاً يُضَـــــــــيِّعُهُ

لكنَّـــــهُم كُلِّفُوا حِرصاً فلَستَ تَرى مُستَرزِقاً وَسِوى الفاقاتِ تُقـــــــــــنِعُهُ

والحرصُ في الرِزقِ والأرزاقُ قَـــد قُسِمَتْ بَغيٌ ألا إنَّ بَـــــــــغيَ المَرء يَـــــــــصرَعُهُ

والدهرُ يُعطي الفتى مِن حيـــــــــث يمنعُه إرثاً ويمنعُهُ مِن حـــــــــيث يُطمِعُهُ

أستودعُ الله في بغداد لي قمراً بالكَرخِ مِن فَلَـــكِ الأزرارِ مَـــــطلَعُهُ

وأخيراً فإن ترجيح نسبة القصيدة لابن زريق لا ينفي احتمال أن تكون لغيره، وهذا باحث يدلي بخلاصة في الموضوع معبراً عن رأيه الشخصي، فيذهب متعسّفاً "إلـــى إنكار وجود شاعر يسمى ابن زريــق، ولكن لدينا قصيدة بهــذا الانتساب فهل نقول فيها سوى أنها نظم شاعر فحْل أخفى اسمه لسبب ما، وخلع عليها هــذا الاسم المستعار؟ أو أنها نظم فقيه أو عالــم كان يرى فــي الشعر سبّة لدينه أو علمه فجعل مــن ابن زريــق خالداً مــن الشعراء؟"[41].

[41] الكنعاني، نعمان ماهر، شعراء الواحدة، دار الجمهورية، بغداد، ط1967م. ص93.

2.الفصل الثاني

الحقول الموضوعية والذاتية للاغتراب في القصيدة

لنتفق بدايةً على مفهوم مبسّط محدد للاغتراب نسير على هداه في أثناء قراءتنا للقصيدة، برغم الفهوم والتأويلات التي تتقارب حيناً وتتباين طوراً. إن ما يعنينا هنا هو النظر الخاص في كلمات الشاعر بعد النظر العام في تلك الآراء، فربما صحّ أن يكون هناك مفاهيم للاغتراب بعدد المعذبين على سواحله وفي لُججه!

بعيداً عن الخلافات حول تفاصيل المفهوم وحدوده وأبعاده، فالمغترب في تصور الباحث إنسان وقع في حال تصادمية مع الواقع الذي يعيش فيه، لدواعٍ وأسباب متعددة، قد تكون هي غربة المكان، أو تكون سبباً عاطفياً متصلاً بفقد أعزاء أو حرمان من محبوبة من أهل المكان، أو تكون سبباً دينياً مثلاً، كأن يعاني الفرد من تمييز بسبب اختلاف دينه أو مذهبه، أو تكون سبباً عنصرياً ظالماً ينتقص من قيمة جنسيته، فهي إذن بالنهاية مشكلة ليست بسيطة ولا عابرةً ولا قصيرةً، تقع بين الفرد ومحيطه، وتنعكس عاجلاً على وجدان صاحبها، وتتخذ وصفاً وحالاً نفسية، وذلك بعد أن يمرّ وقت تتخمر فيه المعاناة وتتسلل إلى وجدان المغترب، وتستقر في شكل من سوء التكيف قد يتطور لحال واضحة الاضطراب والانشقاق واختلال العلاقة مع الواقع. فالواقع أن المعنى النفسي للاغتراب لا ينفصل عن المعنى الاجتماعي بل هو

يرتبط به وثيقاً، والعلاقة جدلية بينهما. ويمكن القول بحسب أحد الباحثين إن المغترب يصبح من "أولئك الذين ينحرفون، في حياتهم وأخلاقهم، عن الأسلوب المألوف"[42]. ويكون حالهم "تعبيراً عن إحساسهم بالعجز الداخلي في علاقاتهم الذاتية والنفسية والاجتماعية، إذ هو حالة اللا قدرة أو العجز التي يعانيها المبدع والشاعر فيرسمها في شعره لوحات متعددة الأنماط والأشكال يحاول من خلالها رصد تلك الظاهرة والتعبير عنها في مظهر من مظاهر سيطرتها وتجليها في النص الشعري"[43].

2.1.المبحث الأول: الحقول الموضوعية

ونعني بتلك الحقول العناصر الكلية الخارجة عن ذات الشاعر وعالمه الوجداني، وهي مؤثرات تتحرك في العالم الخارجي وعلى الرغم منه، ويمكن أن نستقرئها من مطالعة القصيدة:

2.1.1.المطلب الأول: السفر والبعد عن الديار

مغادرة الأرض التي يحبها الإنسان وعاش فيها حيناً من الدهر، خصوصاً في طفولته وصباه، وبين أهله ومن يحبهم، هي سبب خارجي قاهر للاغتراب، فتلك غربة مكانية[44]، وانتقالٌ يستدعي غربةً نفسية يقع فيها كل إنسان، وإن بدرجات متفاوتة. والنظر في أحوال البشر يجد أن المكان الذي ينشأ فيه الإنسان يظل عزيزاً عليه بل يكون قطعة من قلبه، ولو كان أرضاً جرداء أو صحراء مقفرة! ولذلك نُقل عن عمر رضي الله عنه قوله: لولا حب الوطن لخرب بلد السوء![45] وابن زريق يخبرنا أنه رجل تمرّس بالبعد عن بلده العراق أو بغداد، ونجده يُظهر الثقة في لحظة فيقول إنه اعتاد على تحمل آلام السفر وتجشّم معاناة البعد عن الوطن، لكنه يستدرك بالقول إن مصائب الدهر قد تراكمت عليه ونخرت في صدره، ويبدو أن هذا ما

---

[42] بركات، حليم، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2006م).ص35.

[43] بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع. ص35.

[44] للتوسع في الكلام على أثر الأرض في الغربة انظر مبحث "العامل الطبيعي" في: الخشروم، عبد الرزاق، الغربة في الشعر الجاهلي(دمشق:منشورات اتحاد الكتاب العرب، ، ط 1982م).ص17 وما بعدها.

[45] الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد(المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط 2019م). ص91.

جعله ينظر بعين الهوان إلى ما يلقاه من أمر السفر نفسه إذ يجده أهون مما ألمّ به بعده! يقول:

قد كانَ مُضطَلَعاً بِالبَينِ يَحمِلُهُ فَضُلِّعَتْ بِخُطوبِ الدهرِ أضلُعُهُ

لكنه ما يلبث أن يعود للإقرار والاعتراف بما حفر البعاد في قلبه من العذاب، فإن فيه كفاية من الشقاء. لقد جعله قرار السفر الأخير يشعر بتأنيب عميق لضميره واستولى عليه شعور بأنه ارتكب خطأ متهوراً، وهنا يمتزج الأثر الذاتي بالموضوعي ليضخّم ألم الشاعر بهذا السفر الذي لا يختلف في ظاهر الأمر عن أي سفر آخر، لكنه مختلف كثيراً هذه المرة كما سيظهر، يقول:

يَكفِيهِ مِن لَوعَةِ التَفنيد أنَّ لَهُ مِنَ النّوى كُلَّ يَومٍ ما يُروّعُهُ

وهو لا يكاد ينتهي من رحلة تشط به عن بلده ويعود منها منهكاً مشتت البال؛ حتى يشده الفكر إلى سفر آخر، تُلجئه إليه ضرورات الحياة، فيجد نفسه من جديد يحزم متاعه ويجهز راحلته، وهو في ظاهر الأمر مختار مريد، لكنه في الحقيقة مكرَه أسير لتلك الحاجات التي لا مفرّ منها، يقول:

ما آبَ مِن سَفَرٍ إلّا وأزعَجَهُ رَأيٌ إلى سَفَرٍ بالعَزْمِ يُجْمِعُهُ

وتتناوب عليه الإقامة والترحال فيضيع في رقعة المكان غير المحدود في الأرض، حتى يبدو بلا مركز يركن ويأوي إليه. ويتخيل نفسه مرمياً في ملكوت الله الواسع، عمله أن ينفق عمره ماشياً على قدميه تلك المسافات غير المتناهية، يقول:

كَأنَّما هو فِي حَلٍّ وَمُرتحَلٍ مُوَكَّلٌ بِفَضاءِ اللهِ يَذرَعُهُ

وابن زريق يجد نفسه مضطراً للرضا بما وجد نفسه فيه من الجري في دوامات السفر وطاحونة العذاب، حتى لو كان السفر إلى بلاد السند، فإنه لا يفقد الهمّة عن أن يشدّ الرحال إليها بحماس يتجاوز اغترابات الصدر، لكنه يغوص فيها من حيث لا يدري، كل ذلك على أمل التخلص من كابوس الفقر والانتقال إلى حال الغنى، فإن هذا الحلم أو الأمل يمده بطاقة عجيبة، يقول:

إنّ الزَماعَ أراهُ في الرَحيل غنىً ولو إلى السِّنْد أضحى وهْو يُزْمِعهُ

وهو ما يقودنا للانتقال إلى الحقل الثاني في أسباب الاغتراب الموضوعية لدى الشاعر، وتبقى جاثمةً مشكلة السفر والنأي المتواصل عن الديار، وإذا لم يتم استيلاد وطن جديد ولا نسيان الديار الأصلية فإنها تظل سبباً موضوعياً للاغتراب، وسبباً جوهرياً لاغتراب الشاعر ونزيف قلبه المستمر كما رأينا.

2.1.2.المطلب الثاني: الفقر، والكدّ طلباً للرزق

الفقر وضيق الحال من أسباب شقاء الناس في حياتهم، خصوصاً إذا وقعت الحاجة إلى ضروريات في الحياة وعجز الشخص عن تأمينها. ومما يزيد وقع الاغتراب لهذا السبب أن يعيش المرء بفقره محاطاً بطبقات من الناس وأفراد المجتمع تتقلب أمام ناظريه في رغد العيش وألوان النعيم، فهذا يضاعف عذابه وانفصاله عن واقعه، بخلاف ما إذا كان معزولاً مع طائفة من المعدمين الذين يشبه حالهم حاله، فهذا يخفف من وطأة أثر الحرمان، إذ كل إنسان متصل نفسياً بالبيئة الضيقة التي تحوطه، وقد كان من جملة دعاء النبي الكريم ﷺ الذي يدعو به ويعلمه لأصحابه: "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر"[46]، فقد قرن بين الكفر والفقر لما فيهما من أشد الشرور المتوقعة، وعبر عن ذلك الشاعر العربي أبو دلامة في بيته الشهير قائلاً[47]:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجلِ

والفقر إذا لم يصادف فيمن أصاب نفساً صابرةً تتلقاه بحِلم واحتساب، وتُداري مآخذه بين الناس، فإنه يقود صاحبه إلى هزيمة نفسية واغتراب عن المجتمع سمّاه الإمام علي غربة في القول المنسوب إليه: "الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن"![48]، وذلك لعظيم أثره الموضوعي القاهر على كل فرد، وبعكس الفقر . والشاعر يخبرنا بوضوح أن أمله العميق بالرزق، أو هي المطامع كما يعبر صراحةً، تحدوه وتهيئه لحمل المشاق الهائلة في سبيل الخلاص من كابوس الفقر، وتدفعه لفراق كثير من الناس والأصحاب، يقول:

---

[46] أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط ورفيقيه(دمشق:دار الرسالة العالمية ط2009م)، 7 أجزاء. باب ما يقول إذا أصبح، رقم الحديث 5090. ج7ص421.

[47] أبو دلامة، زند بن الجون، ديوان أبي دلامة، تح د. إميل (بيروت:دار الجيل، ط1، 1994م).ص108.

[48] ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم(القاهرة:مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط1963م). ج18ص190.

تأبى المطامعُ إلا أن تُجَشّمه للرزق كدّاً وكم ممَّن يودّعُهُ

لكن الشاعر يرتد إلى يقينه بالقدر وعلمِه بأن الرزق مقسوم، ويدرك أن شقاءه في الاستزادة من الرزق وسعيه خارج الإطار الذي يحفظ صحته وكرامته هو طيش لا مبرر له، وهكذا يقع الشاعر في تناقض بين ما يؤمن به وبين ما يفعله ويسوق نفسه إليه، وهذا بحدّ ذاته طرف من حال الاغتراب الذي استولى على كيانه، وهذا ما تفعله الفتن التي تجعل الحليم حيران، بحسب ما ورد، يقول:

وما مجاهدةُ الإنسانِ واصلةٌ رزقاً ولا دَعَةُ الإنسانِ تقطعهُ

ويطلب الشاعر أنساً يخفف ما به من وحشة الحال وذلك بذكر الله مقسم الأرزاق، ويُسكّن هواجس نفسه بأنه سبحانه قدّر المقادير والأرزاق بحكمته، وأنه لا يخلق إنساناً يدعه يتخبط في دياجير الفقر والعدم، بدون هاد يهدي سبيله، وهنا ملمح آخر للاغتراب يمكن أن نستقرئه من خلف الكلمات، يقول:

والله قسّم بين الخلق رزقهمُ لم يخلقِ اللهُ مخلوقاً يُضيّعهُ

لكن شأن البشر هو خوفهم من الفقر، وهو خوف يتناغم والطمعَ الذي رُكّب في نفوسهم، فهم لذلك ينساقون وراء ذلك الطمع طالبين المزيد من الرزق ومتاع الدنيا، وما ذاك إلا كشارب الماء المالح يزيد شاربه عطشاً، وهم يزدادون في نفوسهم فاقةً! يقول:

لكنَّهُم كُلِّفُوا حِرصاً فلستَ ترى مُستَرزِقاً وسوى الفاقاتِ تُقنعهُ

ويبدو أن حالاً من السكينة تستغرق روح الشاعر وفكره، وهو في قلب المحنة التي يغرق فيها، حيث لا راحة كاليأس[49] كما تقول العرب! فيصفو ذهنه، ويجود بالحكمة ويسترسل لسانه متدفقاً بالصواب، حيث يطلق حكمه الذي ينفّس به عن صدره، وهو أن اللهاث وراء الرزق والشره إليه هو نوع من الظلم وتجاوز الحدّ، وهو يقود من يستجيب إليه نحو الهلاك، يقول:

والحِرصُ في الرزق والأرزاقُ قد قُسمَتْ بَغيٌ ألا إنَّ بَغي المرء يَصرعهُ

[49] وكما يقول قيس بن ذريح: وفي اليأس للنفس المريضة راحةٌ إذا النفس رامت خطةً لا تنالها
ابن ذريح، قيس، ديوان قيس بن ذريح، شرح عبد الرحمن مصطاوي(بيروت: دار المعرفة، ط2، 2004م.)ص108

وما يزيد الشعور بالاغتراب أن الرزق سرّ من أسرار الخالق ترك أمره بيده وحده، وجعل للخلق الأسباب الظاهرة، التي تظل فتنة للناس، يصدّقها السطحيون الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ويعرف حقيقتها أهل البصيرة، حيث تخطئ حسابات البشر كثيراً، ويأتي رزق مفاجئ من حيث لا يتوقع المرء، كما يمكن أن يخيب رجاؤه وتنتقض أحلامه التي أسّس لها وفق قواعد المنطق التي ظن أنها لا تقع في خطأ، يقول ابن زريق:

والدهرُ يعطي الفتى من حيث يمنعُه إرثاً ويمنعُهُ مِن حيث يُطمِعهُ

فهذا نموذج لما يفعل الفقر، وهو سبب موضوعي، في نفس البشر من حال الاغتراب القاهر، وهو كما ذكرنا يتباين بأثره الاغترابي بحسب قوة ضحاياه واحتمالهم، وإذا صادف نفساً لينة هشّة البناء كانت مرارة الاغتراب أقسى، وهذا ما يجرنا إلى الفكرة الآتية في المبحث القادم.

2.2.المبحث الثاني: الحقول الذاتية

ربما كانت العوامل الذاتية للاغتراب أوضح أثراً في اغتراب الإنسان عن ذاته! حيث يظهر أن الشخصيات التي تميل لاستقبال المؤثرات الذاتية بدرجة أكبر، تمتلك نفوسهم تربة خصبة للإصابة بالإحباطات والتصادم مع الواقع، لأن عوالمهم الذاتية يمكن أن تملي شروطها الخاصة التي لا ضابط موضوعياً لها دائماً، وتتغير فيها الانطباعات وردود الأفعال بفعل مؤثرات غير محددة! وهنا يحضرنا تشبيه أحد الباحثين للإنسان المغترب عن ذاته، بالإنسان المجذوب الذي يخرج من ذاته إلى حدّ يعلو معه على نفسه حتى يصل أخيراً إلى الفناء فيما يجذبه ويستغرق فيه، كالمتصوف حين يبلغ مقام الفناء في الله، أو يهوي به إلى فقدان السيطرة على أفعاله ونفسه، فيغدو كالمجنون الذي يفقد الشعور بنفسه من حيث هي مركز لتجربته[50]. وقد يتطور الحال به إلى نوع من الشيزوفرينيا التي هي أم الاغتراب[51]، وعند تلك الدرجة نكون قد صرنا أمام حالات "لا تعدو أن تكون وجوهاً ثنائية مرضية، أو

[50] مبروك، مشكلة الإنسان دراسة في الفكر الوجودي. ص 84.
[51] الخولي، د. يمنى، العلم والاغتراب والحرية،(القاهرة:لهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1987م). ص8.

ازدواجية، أو شيزوفرينيا، إنه انقسام الذات عن ذاتها لتغترب عنها كآخر، أو انفصام الذات عن العالم لتغترب عنه"[52]. وبرغم كل الخسارات التي ينفقها أصحاب المواقف الذاتية فإنه سيظل هناك ما يشد طوائف من الناس للاندغام بحالات الوجدان المؤلمة ضاربين بعرض الحائط مرجعية العقل وبهاءه، وذلك أن "للقلب أسبابه التي لا يعرفها العقل"![53]

2.2.1.المطلب الأول: الضعف الشخصي

بمجرد أن ينزل المرء في محاكماته عن عرش المنطق العام الذي يلف البشر، وينظر بازدراء إلى أحكام العقل الجافة التي لا تحسب حساباً للمشاعر والاعتبارات النفسية والإنسانية، وبمجرد أن يصغي إلى همهمات الوجدان ووسوسات الداخل؛ فإنه بكل ذلك يكون قد فتح على نفسه باباً لا يُسدّ من الضعف، وخطا أولى خطواته باتجاه هزيمة ما! الطريف أن الناس بطبعهم يميلون أو يتعاطفون مع هذا الضعف، ويتأملونه باستمتاع واستجلاء للجمال فيما بين أيديهم من كتب الأدب، وذلك وفق مفهوم عام للأدب مفاده أن الكتابة الأدبية هي نوع من البوح الوجداني الراقي، وغوص فنّي في عوالم الذات. إن هذا الجمال في الواقع مثل الآنية الرقيقة الجميلة، يمكن أن ينكسر ويتهشم عند أول صدمة من الخارج، فلا ينفعها جمالها في التصدي للأخطار المفاجئة، وفي المقابل يبدو العقل بجفافه وخشونة بضاعته أقدر على الاستمرار والحياة، وإن فقد المغريات من فتنة الجذب ورونق الجمال، فذاك عدل الله في قسمته!

وإذا انعطفنا نحو القصيدة لنتلمس تلك المفردات والمعاني وقعنا على شيء واضح لا يحتاج لحفر عميق، فالشاعر منذ الكلمة الأولى يناجي محبوبته المغيّبة في أقصى مكان بالنسبة له، ويتوسل إليها في ألم بالغ وانكسار حزين أن تكفّ عن لومه وعتابه، وما هو في الحقيقة إلا ضميره الذي يؤنبه في قسوة، فقد أدرك متأخراً أن

[52] الخولي، العلم والاغتراب والحرية. ص8

[53] شيخاني، سمير، من حصاد الفكر العالمي(بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط1، 1982م). ص28.

رجاءها العميق له بعدم السفر كان الرأي الصائب، ولم يستطع لانغلاق تفكيره وهمّ نفسه أن يصغي إليها ويرى ما تراه بعيني قلبها من العذاب المرتقب، يقول:

لا تَعذُليه فإنَّ العَذلَ يُولِعُهُ قد قُلتِ حَقاً ولكِنْ ليس يَسمَعُهُ

كانت تلقي بنصحها وإنذاراتها، فتقع كلماتها في قلبه المنهك كالمطارق التي تحفر فيه أخاديد من الحزن والانكسار، فقد كان قلبه معزولاً مغترباً وحيداً، غارقاً في حالة ذاتية، تترجم الأشياء والمؤثرات الخارجية في استقبال سوداوي مظلم، يقول:

جاوَزتِ في لَومهِ حَدّاً أضَرَّبِهِ مِن حيث قَدّرتِ أنَ اللومَ يَنفَعُهُ

ومن إفلاس قوته يتمنى على خيالها البعيد أن تكون كلماتها رقيقةً رفيقةً، وأن تتحلى بأعلى درجات الرحمة، ويتوسل إليها بقلبه المصدّع بالألم. إنه يلقي بحاجته بين يدي أنثاه الضعيفة أصلاً، وما زال يرجو منها أن تمنحه وتغفر له، يقول:

فَاستَعمِلي الرِّفق فِي تَأنيبهِ بَدَلاً مِن عنفِهِ فَهْوَ مُضنى القلبِ مُوجَعُهُ

لا شك أن تلك المناجاة بارعة كثيراً في شدّ انتباه السامعين، وإثارة تعاطفهم العميق، وهذه موهبة فنّ الأدب، لكنها مع الأسف لم تبعد عن الحركة الذاتية، وصاحبها دفع ثمن روعتها وبهائها من ضعفه ونزيفه الذي خبّر به بدون حرج ولا استتار.

ويظل كعادة الإنسان في كل زمان يستخرج المبررات لقراره الذي قاده إلى ما آل إليه، فالناس دائماً يقتنعون بأن آراءهم الشخصية صواب، وآراء غيرهم المخالِفة خطأ، وهو شأن النفس إذ تزيّن لصاحبها عمله فينقاد إليها بما جُبل عليه، لكن الشاعر مع ذلك لا يستطيع أن يجد من القوة ما يكفي لأن يمنح نفسه حالة التصالح مع الذات، فصدره مقبوض وضميره يظل يلومه في قسوة، يقول:

إنّي أُوَسِّعُ عُذري فِي جِنايَتِهِ بالبَينِ عِنهُ وقلبي لا يُوَسِّعُهُ

ويعود الشاعر إلى جلد الذات في حُلّة من النطق بالحكمة، وكأنه يجد في شيء من اللجوء إلى العقل واحةً يخرج بها من سجن الذات وآلامها الكالحة، وهو يعترف بأنه كان كصاحب مُلكٍ، لكن سوء إدارته ضيّع سلطانه، وأفقده حقّه في دوام ملكه، وهذا ضعف آخر يرسمه الشاعر ويصوّره لنا، وهنا يخلص إلى نتيجة كلية وحكم عام

بعيد عن الذاتيات، وهو أن كل من لا يُحسن إدارة ملكه ولا يملك الخبرة في الإمساك بدفة الحكم فمصيره العزل، وإن في كلماته لحكمةً بالغة، يقول:

أُعطيتُ مُلكاً فَلَم أَحسِن سِياسَتَهُ وَكُلُّ مَن لا يسُوسُ الْمُلكَ يُخلَعُهُ

ويتوغل الشاعر في حكمته هارباً من ذاته، معتذراً بثمار فكره الناصع، المبيّن للحق، عن خيبته الواقعية، وعمّا كان قد اختاره بحرّ تفكيره من سلوك عاد بالبؤس عليه وعلى محبوبته. ويرسم لنا صورة أخرى موضوعية لسوء التصرف، يخبّئ من ورائها اتهاماً آخر لنفسه بقلة الشكر على النعمة، وهو ما حكم عليه بفقدها، وكذا شأن من لا يشكر نعمة الله عليه، يقول:

ومَن غَدا لابِساً ثوبَ النّعِيم بلا شُكرٍ عليهِ فإنَّ اللهَ يَنزِعُهُ

ومن ذلك الضعف الذي يكتسي حكمة الفهم يمضي بنا الشاعر في اغترابه إلى ضعف آخر، مستقرّ في عالمه الذاتي، فقد أخبرنا مستدرّاً للتعاطف والرحمة بأنه تلقى صدمة لم تكن في حسبانه، أي أنه أخطأ في حساباته إلى درجة لم يتخيل معها أن يدفع الكلفة الباهظة التي ثمن الخطأ، وهي أن يُحكم عليه بالحرمان من محبوبته، وأن تبتلى مثله بتلك المصيبة، بسبب منه. وربما كانت كلماته نوعاً من إلقاء الذنب على أحداث الدهر، فما أكثر ما نبرّر ضعفنا الذاتي بالأسباب الموضوعية القاهرة، وهذا من باب إلقائنا أخطاءنا على شمّاعات الآخرين كما يقال! يقول:

ما كُنتُ أحسِبُ ريبَ الدهرِ يَفجَعُنِي بِهِ ولا أن بيَ الأيّامُ تَفجعُهُ

وأخيراً فإن الشاعر يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بسلميّته في المطالبة بحقوق قلبه وحظ نفسه، وهو يؤثر سلامة آخرته بصحة عقيدته حين يعلن الرضا بقضاء الله فيما يجري ويصيب، ولو كان ذاك هو الموت، إنه ضعف واستسلام في مكانه الصحيح، وحكمة المخلوق الذي يعرف حدود قوته إزاء الخالق الذي يختبر تسليم قلبه وإيمانه، يقول:

وإنْ يَنلْ أحدٌ مِنّا مَنيَّتَهُ فما الذي في قضاءِ اللهِ يَصنَعُهُ

2.2.2.المطلب الثاني: فراق المحبوبة

آلامنا الذاتية في كثير من الأحيان تبدو للآخرين شديدة الابتذال! خصوصاً إذا صادفت نقاداً لا تعنيهم "القضايا الذاتية". وفراق المحبوبة من أكثر الأحداث والأخبار الشخصية/الاجتماعية التي تتناولها الأسماع والألسنة، وتتقلب فيها الأسماء والتفاصيل، والجوهر فيها متقارب، ومن هنا تفقد عنصر الجذب، وتصير مأساة الأفراد عرضةً لسأم السامع! وما ذاك إلا لأنها عادت إلى هويّتها الأولى وهي أنها مشكلة ذاتية!

والواقع أن مشكلة الفراق أو الانفصال بحدّ ذاتها، ومن ناحية مجردة، هي مشكلة فردية ذاتية من طرف، وعامة موضوعية من طرف، ويبيّن هذا إريك فروم حين يحلل الحب بين الذكر والأنثى ويعلّل لقاءهما بأنه "سعي إلى الاندماج الكامل، وللاتحاد مع شخص آخر"[54]، والحب مهما كان روحياً فإنه يسعى بالنهاية إلى اتصال جسدي، وهكذا فالحب مهما كانت شعاراته وعنوانه هو نوع من الجنس المخبوء، وهنا يكرر فروم فكرته بأن "الاتحاد الجسماني يعني قهر الانفصال"[55].

لكن خبر كل انفصال وحده، عاطفياً نفسياً كان أو جسدياً هو قضية ذاتية، تتباين فيها الآثار والنتائج، وكان أسلم الناس من تخفّف من تلك التعلقات كلها! على أن من براعة الفنان أن يرسم لك لوحته الذاتية ليخلب لبّك ويستجرّ معه قلبك لتشاركه لوعته فيأنس لموقفك (الاتصالي) الذي يخفف عنه انفصاله! وهذا ابن زريق يخبر أنه ترك محبوبته وديعة عند الله في بغداد، ويسمّي المكان الذي فارقها منه، وهذا أدعى للاهتمام بمشكلته والإصغاء إليه، فالطبع البشري يهوى بعض أنواع التفاصيل، وتحتفظ بها الذاكرة، وهذا يذكّرنا أيضاً بالدراسات المكانية والزمكانية في الأدب[56]، يقول ابن زريق:

أستَودِعُ اللهَ في بغداد لي قمراً بالكَرخِ مِن فَلَكِ الأزرارِ مَطلَعُهُ

---

[54] فروم، إريك، فنّ الحبّ، تر مجاهد عبد المنعم مجاهد(بيروت: دار العودة،، ط 2000م). ص52.

[55] فروم، فن الحب. ص52.

[56] راجع على سبيل المثال: باشلار، غاستون، جماليات المكان، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ، ط2-1984م).

ويخبرنا عن شعور آخر لحظات الوداع، فيأتي بصورة من أروع ما ورد في تاريخ الشعر، تمتزج فيها أعلى درجات الألم، مستخدماً فيها محسنين بديعيين هما طباق السلب (ودّع/لا أودع) والجناس الناقص (ودع/ودد)، وهذا ما يذكرنا بالمقولة الشهيرة في الأدب الرومنسي بأنه ليس ثمة شيء يجعلنا عظماء مثل ألم عظيم! يقول:

وَدَّعتُهُ وَبِوُدّي لَو يُوَدِّعُنِي صَفوُ الحَياةِ وأنّي لا أودّعُهُ

ويغوص في تفاصيل الألم وهو يصوّر أنثاه الضعيفة تتلوى من عذاب الفراق القادم بعد قليل، وتتعلق به خوفاً ورعباً من الانفصال الذي قرره الشاعر وتحار فيما تتوسل به إليه كي يعدل عن قرار السفر، لكن يرتد بها إلى أسباب موضوعية قاهرة تتمثل في الفقر، والسفر يصبح ضرورة لا يمكن التصدي لها بالمبررات الذاتية العاطفية، يقول:

وكم تَشفّع بي ألا أفارقَه وللضرورات حالٌ لا تُشَفِّعهُ

ومع توسلات المحبوبة كانت تتعلق بأذياله قبيل الرحيل في ساعة الضحى، والدموع تجري من المآقي ولعلها تتمازج بين الجسدين المعتنقين، وهذا أيضاً تسخير للزمان في رسم الصورة، حيث إن كل شيء في تلك اللحظات هو عنصر مهم في وجدان الشاعر، وهو ينقله لنا في أمانة ودقّة، وأول من يتعاطف معه من السامعين من مرّ به موقف ذاتي عاطفي مشابه، لأنه يناجي به آلامه الخاصة فضلاً عن التراحم الإنساني الذي يحمله كل أحد للشاعر، يقول:

وكم تَشبَّثَ بي يومَ الرحيلِ ضُحَىً وأدمُعِي مُستَهِلّاتٌ وأدمُعُهُ

وتتحرك دوافع الذات و(ميكانيزماتها) لتحمي صاحبها في ذلك الموقف العصيب، ولتحضّه على التماسك والمضي فيما عقد العزم عليه، ولكن أيّ صبر يمكن أن يقوى لذلك الموقف المرير من الفراق، إن الصبر ههنا كالثوب الذي يتمزق تحت طعنات الألم، والشاعر يجتهد لترقيعه وخياطته بدون جدوى ولا حول، يقول:

لا أَكْذب اللهَ ثوبُ الصَبرِ مُنخَرقٌ عَنّي بِفُرقَتِهِ لَكِن أُرَقِّعُهُ

فماذا أعقب ذلك الفراق المروّع؟ لقد غاب ذلك الوجه الملائكي للمحبوبة الذي يحمل معه الأنس والسلام ومصالحة العالم، لتحل بعده غصص العذاب، ولعله في عيون الآخرين لا يعدو أن يكون وجهاً كسائر الوجوه! لكن اللمسة الذاتية الهائمة بغير نظام تفعل فعلها في نفوس من يصغون إليها، فتجعله وجهاً ذا أثر أسطوري بصفات لا نعرفها، ولا يفهمها غير صاحبها، يقول:

اِعتَضتُ مِن وَجهِ خِلّي بعد فُرقَتِهِ كَأساً تجَرَّعُ مِنها ما أُجَرَّعُهُ

ويموت الوقت في وجدان الشاعر وخياله بعد أن حلّ عذاب الفراق، ويضيع حساب الزمن، ويتوغل شعور الاغتراب في كيانه، ويغدو اللوعة والندم رفيقين ملازمين له، لا يفرقان صدره، فذلك ما يصبح ديدنه وعمله بين شروق الشمس وغروبها، يقول:

إنّي لَأقطَعُ أيّامي وأُنفِذُها بِحَسرَةٍ منهُ في قلبي تُقَطِّعُهُ

حتى إذا جنّ الليل من بعد المغيب وأوى كل واحد معافىً من البشر إلى فراشه لينام، عاد ليتخيل لقاءً بعيداً بمحبوبته وهذا ينهش قلب الشاعر المغترب، ولا تسعفه مخيلته من الصور والمعاني إلا بما يزيده ألماً على ألم، فيقضي ليله أرقاً يتلوى، ولا يعود من تلك الذكريات بطائل، يقول:

بِمَن إذا هَجَعَ النُوّامُ أُبْتُ لَهُ بِلَوعَةٍ مِنهُ لَيلي لَستُ أهجَعُهُ

وما بقي له ما يجمعه بعد تشتت اللقاء بمحبوبته سوى حال واحدة من القلق والأرق والسهاد، فيا لبؤسهما فيما بقي لهما من أنيس الوحشة ورفيق المضجع، وهو حال مستمر منذ أن فارق أرض المحبوبة، واتخذ طريقه مغترباً صوب المجهول، يقول:

لا يَطمِئنُّ بِجَنبي مَضجَعٌ وكذا لا يَطمَئِنُّ له مُذ بِنتُ مَضجَعُهُ

كان في غابر الزمان يمرر أيامه ساكن النفس مطمئناً لا يشعر بما تخبئه له الأقدار، حتى قلب له الدهر ظهر المجنّ فأتاه من حيث لا يحتسب، ونال منه بذلك الفراق الذي لا يبدو له دواء، وهي مصيبة تجاوزته إلى محبوبته فنالت منها مثلما نالت منه، فلم يعد يدري من أين تأتيه سهام الألم، يقول:

ما كُنتُ أحسِبُ ريبَ الدهرِ يَفجَعُنِي بِهِ ولا أن بيَ الأيّامُ تَفجعُهُ

قضينا زماناً قريبين في سكينة وأمان واطمئنان، حتى فجعنا الفراق والبعاد، فكان ذلك فيصلاً حاجزاً دون أمانيّ وأمانيّها. والشاعر هنا يتحدث عن المحبوبة بصيغة المذكر، ولذلك أكثر من تعليل، بين غيرةً عليها وبين تحبّب بتغيير جنس المخاطب، يقول:

حتّى جَرى البَينُ فِيما بَينَنا بيَدٍ عسراءَ تَمنَعُنِي حظّي وتَمنَعُهُ

ويلتفت إلى الدار التي كانت تجمعهما في تلك الأيام الخوالي، ويبدو أنها لن تعود، فيخاطبها على طريقة الشعراء العرب منذ الجاهلية، وتلوح له شاحبة كالحة المعالم، بل إنها صارت في عداد البيوت المهدمة المهجورة، وقد بقي منها أنقاض ورسوم بالية، يقول:

بالله يا منزل القصر الذي درست آثاره وعفَتْ مُذ بِنْتُ أربُعُه

ويلجأ إلى التشخيص في استعارة مألوفة في الذوق العربي، ويسأل الدار وحاله بين يأس ورجاء، وبين إحباط وأمل، سؤالاً في براءة بين مصدق ومكذّب: هل ستحمل الأيام القادمة بشرى لقاء جديد، تعود فيه البهجة البعيدة، بعد أن افترقت الأجسام وحالت بين الشخصين القفار، يقول:

هل الزمان مُعيدٌ فيك لذَّتَنا أمِ الليالي التي مرت تُرَجِّعُه

ويعاوده نشيج الروح، ويستخدم كناية عن موصوف هو المحبوبة في نوع من التعظيم وإيلاء الأهمية، فيدعو لها بالصون والرعاية من الله، وأن يغمر الغيث المبارك أرجاء أرضها فتفيض الحياة وتلوح مظاهرها البهيجة الخضراء من جديد، وهذا تكرار لأساليب فنية في الشعر القديم لم تبلَ وظل إيحاؤها هاجساً في المخيلة العربية، يقول:

في ذمَّةِ اللهِ مَن أَصبَحْتَ مَنزلَهُ وجادَ غيثٌ على مَغناكَ يُمرِعُهُ

صحيح أن الفرقة قد نفذ حكمها فينا، وبات كل واحد يعاني ما يعانيه من آهات الوحدة واغتراب الروح، لكني أحفظ عهدها عندي مثلما تحفظ هي عهدي عندها من الوفاء والإخلاص وعدم النسيان، بهذا العهد يتشبث كلانا لنتماسك في وجه الفراق الذي لا يمكن أن نستسلم له بالسلوى والنسيان، يقول:

مَن عِندَهُ لِيَ عَهدٌ لا يُضيّعُهُ كَما لَهُ عَهدُ صِدقٍ لا أُضَيِّعُهُ

ما أعجب أمر المحبّين! قلوبهم لا تغفل عن المحبوب، وهم مع ذلك إذا جرى ذكر المحبوب تلوى قلب المحب من الألم، وعصفت بجنباته أصداء العذاب، واعتصرته ألوان شتى من الآلام، يقول:

وَمَن يُصَدِّعُ قَلبي ذِكرُهُ وإذا جرى على قلبهِ ذكري يُصَدِّعُهُ

وما بيد الشاعر من حيلة باقية سوى أن يتحلى بالصبر مستسلماً لما يتجرعه من غصص حرّى، وإنّ جرح الدهر الغائر فيه لا يزال ينزف وتسيل منه أوجاع الفراق وتأوهات تتعداه إلى المحبوبة، إذ هي تعاني مثلما يعاني، ولا يغني عنها إقامتها في أرضها وبين ناسها، يقول:

لَأصبِرَنَّ لِدهرٍ لا يُمَتِّعُنِي به كما أنّه لا يُمَتِّعُهُ

سيظل الأمل يحدو قلبيهما لعودة الاجتماع واللقاء، فبدون ذلك الأمل لا يبقى قوة على الحياة والعمل، وهو في نوره وإشراقه يمكن أن يغسل كل ذلك الألم، يقول:

عَسى الليالي التي أضنَت بِفُرقَتِنا جِسمي سَتَجمَعُنِي يَوماً وَتَجمَعُهُ

3.الفصل الثالث

الاغتراب والأثر الإسلامي في القصيدة

3.1.المبحث الأول: مبادئ وأخلاق في وجه الاغتراب

جاء الإسلام بمشروع شامل لحياة الإنسان، ولأجل تصحيح فكره ورؤاه، وتقويمها في مواجهة العالم، فهو دين الله أرسل به نبيه الكريم وارتضاه لعباده، وجعل من تعاليمه منهجاً لتحقيق السعادة في دار الدنيا والآخرة، قال تعالى: "اليوم أكملت لكم

دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً"[57]. وهي سعادة تخصّ الفرد وتشمل الجماعة، وذلك إذا تحقق التزام صحيح، وإذا تكامَل فيه أداءُ الفرد مع الجماعة في توازن بين ذينك الجناحين، فعند ذلك يمكن أن يتحقق الأمل المنشود، وتتم صناعة مجتمع مثالي، ينعم أفراده بالخير والسلامة، وينتشر في أرجائه الرحمة والتعاون والتسامح.

ليس من الإحاطة العلمية اختصار قصة الإنسان مع الإيمان والحياة على الأرض بتلك الكلمات التي تبدو للنظرة الأولى وردية أو حالمة، وتعاليم الإسلام بدون تضافر الإرادات البشرية ستظل وصفة خيالية لحلَّ المشكلات والصعاب التي تكتنف حياة الإنسان على ظهر البسيطة، فقد خُلِق وصار قدره أن يجد نفسه محكوماً بدوامات من المؤثرات المادية والبشرية، ستظل تتناوشه من كل طرف ما دام حياً، حتى يرحل بشكل خاطف عن هذه الدنيا برغم إرادته أو دون علمه!

والحق أن أصل القدوم البشري إلى هذا العالم إنما كان امتحاناً خطيراً شاءه الله الخالق لكل نفس، وذلك لغايتين جليلتين؛ أولاهما عبادة الله الواحد والتسليم له، لقوله تعالى: "وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون"[58]، والأخرى إعمار الأرض بما ينفع الناس، قال تعالى: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"[59]. والإنسان في هذا الاستعمار مأمور بأن يسير وفق تعاليم الله ليفوز برضا الله وبالسعادة الأبدية، قال تعالى: "فمن تبع هداي فلا خوف عليهم"[60].

ليس أمراً يسيراً مهمة العبور من الدنيا، واجتياز امتحاناتها بنجاح وفق تلك الغايتين، والقرآن الكريم أخبر أن الله أنذر آدم عليه السلام بأن النزول من الجنة إلى الأرض لن يكون نزهةً، وأن بعده سيكون رحلة مليئة بالمشاق، قال تعالى محذراً من الإصغاء إلى الشيطان واتباع سبيله: "فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى"[61]. إن هذا ليس غريباً عن جلال الامتحان الإلهي، وإذا تمّ النزول إلى الأرض فالابتلاء مستمر

---

[57] سورة المائدة، الآية3.
[58] سورة الذاريات، الآية56.
[59] سورة هود، الآية61.
[60] سورة البقرة، الآية38.
[61] سورة طه، الآية117.

فيها، وفي كل حين يمكن أن تحلّ الآلام بالإنسان عموماً، وبالمؤمن خصوصاً، وذلك لتكشف مدى اضطلاع كل واحد بمهمته ودوره في خلافة الله في الأرض، ولتكون شاهداً عليه، قال تعالى: "ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين"[62]. لا شك أن تلك الآلام يمكن أن تقود إلى حالات محبَطة من "الاغتراب" إذا تُرك الإنسان يصارعها وحيداً بدون مؤيّدات من ربه ودينه. وهو اغتراب يمكن أن يميل بالإنسان عن التمسك بحبل الله، ويُنسيه واجبه العظيم في إعمار الأرض بالخير.

إن التمثل بمعاني الإيمان لا يفرض أن يكون المؤمن في معزل عن الاستجابة النفسية والواقعية لمسببات الأحزان والهموم، ولا يعني أن الانحناء أمام مطارق الضغوط الاجتماعية، في حالات هي من صميم معاني الاغتراب وتفسيراته، سبب لاتهامه في دينه! وفي القرآن والحديث شواهد لا تحصى على الضعف البشري الذي لا يُنقص من قدر المؤمن التلبّس بها والخضوع لها، فالمؤمن إنسان كالبشر، وليس آلة جامدةً بدون مشاعر عفوية وطبيعية، والقرآن مثلاً أخبرنا عن حالات من الخوف اقتحمت قلوب بعض الأنبياء والصالحين، وهم صفوة البشر، كما حدث مع إبراهيم عليه السلام حين زاره ملائكة في هيئة بشرية، وأحسّ منهم شيئاً غريباً عن حال البشر، قال تعالى: "وأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف"[63]. وأخبرنا القرآن عن قلق عميق انتاب السيدة مريم من فكرة مواجهة المجتمع بمولودها عيسى عليه السلام، من غير والد تعترف به أعراف الناس وقوانينهم الاجتماعية، و"قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً"[64]، وحين اشتد بها المخاض "قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً"[65]. وفي الحديث أن رجلاً من الأنصار يقال له أبو أمامة كان جالساً في المسجد فقال له النبي ﷺ: "ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله. قال: أفلا أعلّمك كلاماً إذا

---

[62] سورة البقرة، الآية155.
[63] سورة هود، الآية70.
[64] سورة مريم، الآية20.
[65] سورة مريم، الآية23.

أنت قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك.."[66]، وفي الحديث الصحيح: "اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزَن، والعجز والكسل.."[67]

وبتعبير آخر إن الإسلام "لا يقول لك في شيء من أحكامه: لا تجُعْ، أو لا تكره، أو لا تحب، ولكنه يقول لك: إذا جُعت فلا تسرق، وإذا كرهت فلا تظلم، وإذا أحببت فلا تنحرف"[68]. وذلك لأن أحكامه "تتعلق بما يصدر عن الإنسان من أفعال اختيارية، لا بما استكنّ فيه من انفعالات ومشاعر قسرية[69].

لم يترك الإسلام المؤمن يخوض غمار الابتلاءات أعزل بلا نصير ولا توجيهات ربانية، فقد أمر بجملة أخلاق[70] فردية واجتماعية يدخل الالتزام بها ضمن منظومة الامتحان في الدنيا، فربّى أتباعه على الانضباط بها، وأيّدها بدوافع إيمانية تنبع من عقيدته[71]. وهي التي تعينه على مواجهة الصعاب، وتهيئه لاستمرار قيامه بالخلافة الصالحة التي خُلق من أجلها. ونحن نريد هنا أن نقف على طائفة من تلك الأخلاق السلوكية بنوعيها الفردية والاجتماعية، وإن كان الفصل بينهما لا يتحقق دائماً لقوة العلاقة بين الإنسان وإخوانه البشر، وللتأثير المتبادل بينهما.

3.11.المطلب الأول: أخلاق وسلوكيات فردية أو شخصية

أولاً: أخلاق وسلوكيات مشتركة بين المؤمنين وسواهم

---

[66] أبو داود، سنن أبي داود، باب في الاستعاذة، رقم الحديث1555.

[67] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، شرح د. مصطفى ديب البغا(دمشق_بيروت: دار ابن كثير، اليمامة للطباعة والنشر، دات)، 6 أجزاء. كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، رقم الحديث6008.

[68] البوطي، د. محمد سعيد رمضان، من الفكر والقلب(أبو ظبي: دار الفقيه، دت) ص228.

[69] البوطي، من الفكر والقلب. ص227.

[70] الخُلُق: "السَّجِيَّةُ والطَّبْع والمروءة والدين". الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة،(بيروت:مؤسسة الرسالة، ط2، 2005م). مادة "خلق".
والخُلُق هو "مجموعة العادات والعواطف والمثُل التي تميّز الفرد، وتجعل أفعاله ثابتةً نسبياً، ويمكن توقّعُ صدورها عنه". وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م. ص163.

[71] تتكون البنية الإسلامية "من مجموع عناصر ثلاثة هي: العقيدة والتشريع والأخلاق" . البوطي، د. محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر المعاصر(بيروت:دار الفكر، ط8، 1997م). ص70.
وهذه العناصر تكوّن في بناء الإسلام نسيجاً متكاملاً متناغماً، فالله تعالى على سبيل المثال عادل لا يظلم، واسمه العدل، وسرقة ممتلكات الناس جريمة سلوكية لها عقاب مشروع، والظلم خلق محرّم ممنوع بين الناس. وهكذا فكل جزء من أحكام الإسلام متصل الوشائج بين هذه الأركان الثلاثة.

غاية الأخلاق كما لا يخفى هي تطهير النفوس، وتنقيتها من شوائب السلوك لتصنع الإنسان القويم بذاته، المهيأ ليسهم في بناء مجتمع سليم، فصلاح أي مجتمع بصلاح أفراده.

والأخلاق الكريمة ليست بمجملها حكراً على المؤمنين بالله، فالنفوس تدرك بفطرتها كثيراً من الخير والشر، والعرب في الجاهلية أدركوا كثيراً من معاني الأخلاق السامية بدليل قول النبي ﷺ: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"[72]. وتلكم نماذج لأخلاق إسلامية عرفها العرب قبلاً، من فوائد التحلّي بها شحذ همم الأفراد وصون نفوسهم عن الانكسار أمام أعاصير الحياة الصعبة.

1- العفّة:

في لسان العرب أن العفة هي "الكفّ عمّا لا يحِلُّ ويجْمُلُ. عَفَّ عن المحارم والأطماع الدّنيّة عِفَّةً وعفافاً..وعفّ عن المسألة والحرص"[73]. وعرّفها ابن عُديّ بأنها "ضبط النفس عن الشهوات، وقَسْرُها على الاكتفاء بما يقيم أوَدَ الجسد، ويحفظ صحّته فقط؛ واجتنابُ السّرَف والتقصير في جميع اللذات، وقصْدُ الاعتدال. وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه الْمُستحبّ، المتفَق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها"[74].

وقد فاخر العرب منذ أيام الجاهلية بعفة نسائهم[75]، وفي المقابل نجد في القرآن تفصيلات وتطبيقات لخلق العفة يسير عليها المؤمنون.

وفضل العفة في القدرة على لجم النفس عن بعض أهوائها ورغائبها المركبة فيها، بداعي صون الذات والترفع بها عن النقص أو التلبس بممنوع شرعاً أو بما يشين

---

[72] الألباني، محمد ناصر الدين، سلسة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1415ه-1995م، 7 مجلدات. رقم الحديث 45، مج1ص112.

[73] ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ. مادة "عفف".

[74] ابن عديّ، يحيى، تهذيب الأخلاق، تح سمير خليل (بيروت:مطبعة مركز التراث العربي المسيحيّ، ط 1993م). ص50.

[75] في خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى: "ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعفّ النساء.." صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في عصور العربية (بيروت: المكتبة العلمية، دت) 3 أجزاء. ج1ص52.

عُرفاً، قال تعالى[76]: "ونفسٍ وما سوّاها . فألهمها فجورها وتقواها". والتعفف محمود كله، وهو درجات، ومن أهم أنواعه التي ذُكرت في القرآن:

أ- التعفّف في إشباع الغريزة: حدّد الإسلام طرقاً لتلبية الحاجات الجسدية، بما يقود تلك الطاقة الخطيرة للإسهام في تكوين الأسرة السليمة، ويحميها من ضياع الأنساب والانقياد الأعمى وراء اللذة، فحذّر من الوقوع في الزنى، قال تعالى[77]: "ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً"، وأمر من لا يملك القدرة المادية على الزواج بأن يصبر ويسعى في أسباب الرزق حتى ييسر الله له، قال تعالى[78]: "وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله"،

وشرع ما يعين على اجتناب الزنى فحرّم أسبابه ودواعيه، ومن ذلك النظر إلى المحرمات، قال تعالى[79]: "قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم". وأمر من طرف آخر بالستر، وعزّز خلق الحياء، حين أكّد خصوصية الإنسان إذا كان خالياً، فأمر بتعليم الأولاد آداب الاستئذان، وقال[80]: "وإذا بلغ الأطفال منكم الحلُم فليستأذنوا".

وجعل المتعفّفين مع المكثرين من ذكر الله، وبشرهم بالأجر العظيم، قال تعالى[81]: "والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً". وأمر باللجوء إلى الصلاة والعبادة ليلجم المسلم نفسه عن الاستجابة للأهواء المحرّمة، قال تعالى[82]: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر".

مع تشديد الإسلام في الدعوة إلى التعفف فهو ليس بعيداً عن الواقع البشري، فالمسلم قد يجانب خلق العفة في لحظة شيطانية، فلا يكون بابُ التوبة مغلقاً أمامه، قال تعالى[83]: "إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم".

---

[76] سورة الشمس، الآيتان7-8.
[77] سورة الإسراء، الآية32.
[78] سورة النور، الآية33.
[79] سورة النور، الآية30.
[80] سورة النور، الآية59.
[81] سورة الأحزاب، الآية35.
[82] سورة العنكبوت، الآية45.
[83] سورة آل عمران، الآية135.

ب- العفة في طلب المال: والمال أقرب الشهوات، وكل ما كان للنفس فيه شهوة كان للتعفف عنه نظير من الخلق المطلوب! وكان من تأديب الله سبحانه لنبيه الكريم قوله[84]: "ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه"، فهذا تنبيه على أن متع الدنيا بحلالها وحرامها هي فتنة واختبار، وقد حذّر القرآن من انجراف الإنسان وراء حب المال والاندفاع لتحصيله بطرق غير مشروعة، حيث "إنه لحب الخير لشديد"[85]، فقال تعالى[86]: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل". وطلب من ولي اليتيم الغني الذي ينفق عليه أن يتعفّف عن الإفادة من ماله، قال تعالى[87]: "ومن كان غنياً فليستعفف". ورسم صورة لطيفة للمتعفف المتصوّن مع فقره، فدعا إلى تحرّيه والإحسان له، وجعل له علامة أنه يصون ماء وجهه عن ذلّ السؤال، ولا يبذل نفسه متسولاً، ، وإن وشى ظاهره بحقيقة حاله، فهذا من يستحق المعونة أكثر من سواه، قال تعالى[88]: "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم".

العفة والاغتراب: إذا كان في التعفف ألوان من الألم في منع النفس عن رغباتها فإن في المقابل فوائد عظيمة للعفة، فهي تقوّي النفس وتجعلها تكتفي من الحظوظ المتاحة بالحلال المتيسر، وتقصر عين صاحبها عمّا لا يحلّ له، وتتحقق فائدة ذلك إذا كانت النشأة منذ الصغر على لجم النفس عن منكر الشهوات وخبيثها، وأصل البلاء من قلة القناعة وجموح الهوى، وإيراد النفس كل ما تشتهي، وشأن النفوس الاستزادة من الرغائب وعدم القناعة بالوقوف عند حدّ ما لم يكن هناك رادع شديد، وذلك كما قال أبو ذؤيب الهذلي[89]:

والنفس راغبةٌ إذا رغّبتها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

---

[84] سورة الحجر، الآية88.
[85] سورة العاديات، الآية.
[86] سورة البقرة، الآية188.
[87] سورة النساء، الآية6.
[88] سورة البقرة، الآية273.
[89] الهذلي، أبو ذؤيب، دبوان أبي ذؤيب الهذلي، تح د. مطانيوس بطرس، دار صادر، بيروت، ط1، 1424هـ-2003م. ص145.

والواقع أن الحياة لا تعطي الإنسان من متاعها إلا بسعي وكدّ، ولو أنه حصل بيسر على ما يريد لانقلب طالباً المزيد كشارب الماء المالح، فكان أدعى للتصادم مع الواقع، وأن يحيق به شقاء الاغتراب. وإذا تفتحت نوافذ النفس، واستسلمت لنداء الرغبة، فإنها تنساق إلى عجائب الأهواء المنكرة، ومثل ذلك ما كان من حال قوم لوط، فأهلكهم الله بفجورهم. والناظر في حال المجتمعات البعيدة عن الإسلام اليوم يجدها غارقة في أوحال الفاحشة، فلا يكاد أحد يسلم من فعل الزنى، وذلك بعد أن غاب نور الإيمان بالله، وغفلت النفوس عن حساب الآخرة.

2- الإباء والعزة:

في اللغة: "أبى الشيءَ يأباهُ إباءً: كرهه. والإباء: أشدّ الامتناع"[90]. و"أبى الشيءَ: ترفّعَ عنه. وله نفسٌ أبيّة: ذات ترفُّع"[91]. و"العِزّ: القوة والشدة والغلَبة. والعزيز: هو الممتنع فلا يغلبه شيءٌ"[92]. و"العِزّة: الحَمِيَّة والأنفة: (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزّة بالإثم)"[93]. وعرّفها بعضهم بأنها "صفة بها يجعل الإنسان نفسه في منازل الرفعة والاحترام من غير تكبر، ويعرف بها قدر نفسه"[94].

تغنّى العرب الجاهليون بعزّتهم وإبائهم، أعان على ذلك خشونة حياتهم ووعورتها، وابتعد بهم حرمانهم من العيش المنعم الرغيد عن إظهار التعلق بالحياة، ففضّلوا على ذلك طبع الشموخ والتمنع، مع ما يجرّ إليه من المهالك والأخطار، وقابلوا خشونة الأرض بالترفع والتعالي؛ بله الاستكبار أحياناً، وحين انبلج نور الإسلام في تلك البيئة أفاد من الشدة فيها، وهنا نذكر قول الرافعي[95]:

إنّما الإسلام في الصحراء امتهدْ ليجيء كل مسلمٍ أسدْ

---

[90] ابن منظور، لسان العرب. مادة "شرف".

[91] مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط(القاهرة مكتبة الشروق الدولية، 2004م) مادة "أبى".

[92] ابن منظور، لسان العرب. مادة "عزز".

[93] سورة البقرة، الآية206. مجمع اللغة العربية بمصر، المعجم الوسيط. مادة "عزز".

[94] مجموعة مؤلفين، معجم المصطلحات (بيروت:مركز باء للدراسات-بيت الكاتب، 2006م.
). ص51.

[95] لم أجده في ديوان الشاعر، والبيت منسوب إليه، ذكره غير باحث، ومنهم: الطنطاوي، علي، ذكريات(جدة: دار المنارة، ط1، 1409ه-1989م) أجزاء. ج3ص68. وراجع: الرافعي، مصطفى صادق، ديوان الرافعي(الإسكندرية: مطبعة الجامعة ، 1322ه)، جزءان.

وجاء الإسلام ليقدم تعديلاته على ذلك الخلق الأصيل، حيث جعل الله[96] "العزّة لله جميعاً"، وأنه سبحانه[97] "له الكبرياء في السموات والأرض". ومن عزّة الله والقرب منه، والحق الذي لديه؛ يستمد المسلم شعوره بالعزة والقوة والرضا عن الذات. وقد منح الله هذه الكرامة للمؤمنين، فقال تعالى[98]: "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين".

ولا تعني تلك العزّة التكبر والتعالي على الناس بحال من الأحوال، ولكنها ما يفهمه السامع بالبديهة من الكرامة والاكتفاء والترفع عن الدنايا، وهي لا تعارض إظهار اللين وحفظ أسباب المودّة مع طوائف من شرار الناس وجهلتهم، وإن هذا الخلق يُكسبهم المودة والثقة، ويفتح على أيديهم القلوب، ولو بعد حين، وهذا في ذاته من أعزّ أماني المسلم. قال تعالى[99]: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً".

ومن صور الضعف واللين التي يُظهرها المؤمن فتزيده عزّة ما أمر به الله من خدمة الوالدين، والقيام بحقّهما؛ حتى ليتراءى منه مظهر الذل في ذلك، لكنّ الحقّ أن قلبه عامر بالعزة والإيمان، وهذا ما لا يمكن أن يفهمه غير المسلم! قال تعالى[100]: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة". وأخيراً فإن المؤمنين تربط بعضَهم ببعض أخوّةٌ تحوّلهم إلى[101] "أذلّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين"

وأما العزة بالباطل فمبنية على أسس من الاستقواء وتمجيد الذات أو الجماعة، وكثيراً ما يتمادى ذلك التمجيد ليبلغ حدّ احتقار الآخرين، فتقودهم العزة إلى شرور وقتل وخراب. وقد أنكر الله أنْ[102]: "جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية"، لأنهم ينتصرون لذواتهم، وتقودهم العصبيات العمياء والغضب الأرعن، ولا يهون عليهم إعلان الخضوع للحقّ والتسليم بالخطأ، فهؤلاء إذا قيل لأحدهم[103]:

---

[96] سورة يونس، الآية65.
[97] سورة الجاثية، الآية37.
[98] سورة المنافقون، الآية8.
[99] سورة الفرقان، الآية63.
[100] سورة الإسراء، الآية24.
[101] سورة المائدة، الآية54.
[102] سورة الفتح، الآية26.
[103] سورة البقرة، الآية206.

"اتق الله أخذته العزّة بالإثم"، وهؤلاء[104]: "استكبروا في أنفسهم وعتَوا عُتُوّاً كبيراً"، فأيُّ خير في تلك العزّة؟!

الإباء والاغتراب: لا شك أن عزة النفس تورد صاحبها ألواناً من الصعاب والمشقات، إذ تفرض عليه الترفع والتصون عن الدنايا، وهي في هذا تشبه العفة التي تحجز صاحبها عن إبداء الرغبات التي يراها صاحبها تنقص من قدره. لكن في مقابل ذلك التجشّم والتصدي لما يرهق النفس بالأعباء فإن الإباء ينأى بصاحبه عن كثير من رغبات النفس ويجعل صاحبه في استغناء وشغل عن تلك المطامع الدنيوية، وكلما قلّت حاجات الإنسان زاد شعوره بالغنى والاكتفاء، وخفّف من تصادمه مع الواقع وبالتالي اغترابه عنه. وهكذا فالإباء أو العزة يبدو مركباً خلُقيّاً يصون شخصية صاحبه، ويمنحه الكبرياء والهيبة والكرامة، ويمنعه أن يُهين نفسه أو يرضى أن يكون أقل مكاناً وشأناً من أشراف الناس، ويجعله متصالحاً مع نفسه بأقل المكاسب المتاحة له.

ثانياً: أخلاق وسلوكيات خاصة بالمؤمنين

جاء الإسلام ومعه منظومة أخلاقية جديدة، وافقت في كثير من مفرداتها ما عرف الناس قبلاً من أبواب الخير، لكنها كذلك جاءت بشيء جديد لم يعرفه الوثنيون، ونحن نقف على نماذج من تلك الأخلاق التي تصدّ حال الاغتراب التي يمكن أن تجتاح الإنسان ما دام كما نعرفه قابلاً للضعف والمرض والانكسار.

1- دعاء الله والالتجاء إليه:

ومن أهم تلك الأخلاق السلوكية دعاء الله والالتجاء إليه، فمَن كان الله ربَّه فقد لجأ إلى ركن ركين في الملمّات، وهو يستمد منه القوة والعزّة في وجه الشدائد. فها هنا سلوك نفسي إسلامي، متصل بظروف الضعف والقوة في حياة الإنسان، وبطريقة تفاعل المسلم معها، فهو لذلك عميق الأثر بعيد الغور في شخصيته.

والمؤمن يتجه قلبه إلى ربّه إذا نزلت بساحته الكروب، وقد علّم القرآن المؤمنين أن يتوجهوا في سائر أحوالهم وحاجاتهم، لغايات الدنيا والآخرة، إليه سبحانه، قال

[104] سورة الفرقان، الآية21.

تعالى[105]: "ففروا إلى الله"، ويمكن أن نقف على نماذج لجأ أو يلجأ فيها المؤمن إلى ربه، ويسارع لإعلان مرجعيته وولائه فيها، هذا موسى يعوذ بالله من بطش فرعون الذي لا يؤمن بيوم الحساب ويغرّه سلطانه، فإنسان كهذا في كل زمان ومكان يتعوذ المؤمن بل البشرية من شره، وقد قال موسى حين شعر بالخطر[106]: "إني عُذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب".

والقرآن يعلّم السائرين على هديه الاستعاذة اللفظية بالله، إذا شعر أحدهم بشيء من أثر الشيطان في تفكيره ومشاعره، فإن هذا الذكر يطهّر قلبه، ويعينه على زوال وسوسة الشيطان وغشاوته، قال تعالى[107]: "وإما ينزغنّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله"، ويكرر نبيّ الله زكريا السلوك نفسه الذي وصّى به القرآن، فالمؤمنون مهما اختلفت أزمانهم من معدن وروح واحدة، وزكريا يلجأ إلى الله طالباً تحصين مريم وذرّيتها من إفساد الشيطان وضلاله، إذ يقول بين يديه[108]: "إني أُعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم".

وترشدنا سورة الفلق إلى منهج الاستعاذة في الأمر كله، فالمؤمن يستعيذ بربه من شر المخلوقات كافةً، ومن شر الأحداث المجهولة، ومن شر أصحاب النفوس الضعيفة والأخلاق البغيضة كالحسد والأذى بالسحر[109].

الدعاء والاغتراب: علّم القرآن المؤمنين الدعاء وآدابه، وجعل الدعاء سبباً للإجابة وحصول المأمول، فقال تعالى[110]: "ادعوني أستجب لكم"، بل جعله علامة على الإيمان بتتمة الآية نفسها فقال[111]: "إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين"، فالتوجه بالدعاء علامة أكيدة على العبادة، والعبادة في ذاتها سبب لإثبات هوية الإنسان أمام نفسه، وهو تبعد به عن كابوس الفراغ والحركة الهائمة بلا مركز تنطلق منه وتطوف حوله.

---

[105] سورة الذاريات، الآية50.
[106] سورة غافر، الآية27.
[107] سورة الأعراف، الآية200.
[108] سورة آل عمران، الآية36.
[109] سورة الفلق، الآيات1-5.
[110] سورة غافر، الآية60.
[111] سورة غافر، الآية60.

ومن كرم الله وعطائه أن جعل من الدعاء نفسه وسيلة أخرى لنيل رضاه ومثوبته، بخلاف البشر يغضبون إذا طلبت منهم واحتجت إليهم، والله يغضب إن لم تطلب منه! فهو الغني الكريم.

وهكذا فالدعاء وسيلة المؤمن إلى التوازن النفسي هذا يوسف يناجي ربه ويسأله أن يصرف عنه فتنة النساء، فيقول[112]: "وإلا تصرف عنّي كيدهنّ أصبُ إليهنّ". وموسى الذي قتل نفساً بالخطأ يلجأ إلى الله داعياً يطلب المغفرة[113]: "قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي". ينسى شكره على نعمه، فيقول[114]: "رب أوزِعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ". والقرآن يعلم النبي الكريم والمؤمنين أن يقولوا[115]: "رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين"، وأن يتوجهوا بالدعاء ليكفّ عنهم عذاب الآخرة وآلام الانتظار في ذلك اليوم الرهيب، فهم يقولون[116]: "ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون".

والدعاء أخيراً سلاح المؤمن في التخلص من الضعف إذا ألمّ به، ولتقويته على مواجهة الخطوب والنصر على الأعداء، هذا طالوت وجنده المؤمنون يتوجهون بقلوبهم إلى الله، بينما يمشون لملاقاة الكفار جالوتَ وجيشه، فيدعون قائلين[117]: "ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا". وهو سلاح موسى حين واجه فرعون وحاشيته، فدعا ربه قائلاً[118]: "رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري".

2- احتساب الجزاء[119]:

---

[112] سورة يوسف، الآية33.
[113] سورة القصص، الآية16.
[114] سورة النمل، الآية19.
[115] سورة المؤمنون، الآية118.
[116] سورة الدخان، الآية12.
[117] سورة البقرة، الآية250.
[118] سورة طه، الآية25.
[119] في الحديث الشريف أن أبا طلحة مات له ولد وهو غائب في سفر، فلما رجع قالت له زوجته: "يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك". انظر: النووي، محيي الدين، يحيى بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج. شرح النووي على مسلم، بيت الأفكار الدولية، عمّان–الرياض، بلا تاريخ. كتاب البرّ والصلة والآداب، الحديث رقم2144، ص1493.

يربّي الإسلام في طباع المؤمنين حالاً من التواصل المستمر بين العبد وربّه، فالمسلم يراقب الله في سائر عمله ونيّته، وساعٍ للإكثار من ذكر الله في سائر أحواله وأعماله، من ساعة يقظته إلى وقت نومه. وهو في مقابل تلك الأعمال موعود بالأجر الكبير الخالد في الآخرة، وبنيل رضا الله عنه، وهو يحظى برحمته وأُنس طاعته.

أما الجاحد فيعمل لدنياه محروماً من معزِّز أخروي، وليس ثمة دوافع تحثه على الخير سوى منفعته ورؤاه الشخصية والاجتماعية، وهي في أحسن أحوالها لا تتجاوز ما يسمى بـ "الأنسنة"، فهي محض دوافعَ واستجابات إنسانية، وليس لها ما يؤيدها من السعي والسعادة برضا الله ورحمته، أو أجرٍ منتظَر وجائزة في المستقبل؛ فما أيسر إذن أن تتهاوى تلك الدوافع في الامتحانات الواقعية، وإزاء المشقات التي يلزم لتقديم العون فيها التضحية الكبيرة أو ركوب المخاطر!

ومن هنا كان المسلم في حياته الدنيا أشبه بالتاجر القائم على أعمال تجارته فلا يغفل عنها، ويزداد من أرباحه فيها. والطاعات كثيرة، وأسباب القرب من الله بعمل الخيرات واسعة، ولكل مجتهد فيها نصيب. هذا نوح عليه السلام يجتهد في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين، ويخبر قومه أن لا مكسب شخصياً له من وراء دعوته، ولا يطلب منهم متاعاً، وما هو إلا عبد مطيع لله، يحتسب أجره على مشقات الدعوة عنده، قال تعالى[120]: "وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين".

وإحسان المؤمن للناس لا يلتمس من ورائه منفعة لديهم، ولا يجد لنفسه فضلاً عليهم، بل إنه يشكرهم على أن جعلهم الله سبباً لقيامه بطاعة يكسب منها رضا الله ومثوبته، فيعامل المحتاجين بتواضع وخفض جناح، ويرى فيهم إخوة له يقوم بطاعة أمر الله له تجاههم، قال تعالى[121]: "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً".

---

[120] سورة الشعراء، الآية109.
[121] سورة الإنسان، الآية9.

ولا يقتصر احتساب الأجر على القيام بالعبادات وعمل الطاعات، فالمؤمن إذا أصابه بلاء أو مصيبة فصبر، واحتسب كان له الأجر العظيم، فإنما[122]: "يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب"، والقرآن يخبرنا ويعلمنا أن المؤمن الحقيقي إذا أصابته مصيبة تماسك ولم يفقد صوابه، بل ذكر الله واحتسب وتذكر فضل المصيبة في الأجر، وأن الدنيا ممرّ لا يلبث أن يعبره الإنسان إلى العالم الحقيقي، قال تعالى[123]: "الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون".

الاحتساب يخفّف الاغتراب: في كتاب الله نقف على شواهد كثيرة تربّي في المؤمن خلق الاحتساب، وانتظار العطاء الأخروي، جزاءً على عمل الطاعات في الدنيا، وعلى الصبر على مصائب الدنيا وآلامها. وللقرآن في ذلك أساليب عديدة؛ منها التذكير بمنهج العدل الإلهي، فالله يكافئ أصحاب البرّ بالإحسان إليهم، قال تعالى[124]: "وكذلك نجزي المحسنين"، بمقابل أنه يعاقب المسيئين والمقصرين إذ يقول[125]: "وكذلك نجزي المجرمين"، لأنه بعدله يجزي[126]: "كلَّ نفس ما كسبت"، وفي المقابل ما[127]: "جزاء الإحسان إلا الإحسان".

والقرآن يشوّق العباد لعمل الخيرات، والتسابق إليها، فيجزي الصالحين بكرمه الفياض، والنيّة أمر عظيم الشأن في المنظور الإسلامي، ومن هنا فالقرآن ينبّه الناس على استحضار النيّات التي فيها فلاحهم، ومن أجلّها أن يحتسب العبد في عمله الأجر للآخرة، قال تعالى[128]: "ومن يرد ثواب الآخرة نؤتِه منها". ويخبر العباد بأن النعيم هناك سيكون للصالحين[129]: "جزاءً بما كانوا يعملون"، وبما وطّنوا أنفسهم على انتظاره من الثواب، قال تعالى[130]: "ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا".

---

[122] سورة الزمر، الآية10.
[123] سورة البقرة، الآية156.
[124] سورة الأنعام، الآية84.
[125] سورة الأعراف، الآية40.
[126] سورة إبراهيم، الآية51.
[127] سورة الرحمن، الآية60.
[128] سورة آل عمران، الآية145.
[129] سورة الواقعة، الآية24.
[130] سورة يوسف، الآية57.

3.1.2.المطلب الثاني: أخلاق وسلوكيات اجتماعية

الأخلاق الاجتماعية تجعل من المجتمع كياناً يعضد فيه بعض الأفراد بعضاً، وهو ما شأنه أن يضيق حالات الاغتراب الفردي أو المجتمعي إن صح التعبير. ووقد ورد في الحديث الشريف: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى"[131].

أولاً: أخلاق وسلوكيات مشتركة بين المؤمنين وسواهم

1- العدل:

في اللغة: "العدل: ضدّ الجَور..والعادل: الذي لا يميل به الهوى. والعدل: الحُكم بالحقّ. والعدل من الناس: المرْضِيُّ قولُه وحكمه. وفلان يعدل فلاناً أي يساويه. وتعديل الشيء: تقويمُه. والعديل: الذي يعادلك في الوزن والقدْر. واعتدل الشعر: اتّزنَ واستقام"[132]. و"العدل: الإنصاف، وهو إعطاء المرء ما له وأخذُ ما عليه. والعدل: المِثْلُ والنظير. والعدل: الجزاء"[133]. والعَدل اصطلاحاً في معناه الفلسفي المجرد يمكن تحديده بأنه "التقسّط اللازم للاستواء، واستعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، من غير سرَف ولا تقصير، ولا تقديم، ولا تأخير[134]. فهو إذن "الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط"[135].

لا شك أن طلب العدل هو من الفطرة الإنسانية التي تميل إليها النفوس بالبداهة، ولا يُتوقع غيابُ قيمتِها ومعرفة جوهرها ولو غابت الشرائع الإلهية، لكن عمل الشرع هو توضيح مضامين العدل. العدل خلق اجتماعي تتجدد الحاجة إليه في المجتمعات البشرية، يطالب به الضعفاء قبل غيرهم، لأنهم به ينتصفون لحقوقهم وأنفسهم، وفي مقابل العدل كان الظلم خلُقاً بغيضاً لا يتشرف عاقل بالانتساب إليه والاعتراف بارتكابه. والواقع أنه مع إدراك العرب ببديهتهم الفطرية لمضامين هذين

---

[131] النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج. كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم الحديث 2586.

[132] ابن منظور، لسان العرب. مادة "عدل".

[133] مجمع اللغة العربية بمصر، المعجم الوسيط. مادة "عدل".

[134] ابن عدي، تهذيب الأخلاق. ص68.

[135] الجرجاني، علي بن محمد، معجم التعريفات، تح محمد صدّيق المنشاوي(القاهرة: دار الفضيلة، د ت). ص124.

المفهومين؛ فقد ظل هناك غموض في تفسيرهما أحياناً، وفي تحديد صفة الخير والشر التي يضفونها على الأعمال. ومن هنا كان لا بد من حسم إلهي يصحّح المفاهيم الأخلاقية، ومن أهمها العدل، ويبيّنها للبشرية ليعُمّ الصلاحُ والسلام الأرضَ.

والله بعدله سبحانه يجازي على الأعمال الصالحة، كلَّ إنسان بحسب اجتهاده، فلا يضيع تعب العاملين وإخلاصهم في أداء الطاعات، ولذلك[136]: "فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه". وأما المقصرون المخالفون لبعض أوامره فالعدل أن يعاقبهم، وهو الأصل، لكن عفوه سبحانه أوسع، فقد يتجاوز عنهم بما يشاء، قال تعالى[137]: "إن الله لعفوٌّ غفور"، وقال[138]: "ويعفو عن كثير".

العدل في مواجهة الاغتراب: لا شك أن الشعور بأن العدل سيد الموقف في العلاقات الإنسانية يخفف كثيراً من صور الاغتراب. لقد نبّه القرآن الكريم على أن العدل غاية عليا في المعاملات بين الناس، وحذّر من أن البغض والنفور الذي يمكن أن يقع بينهم بحكم بشريّتهم ليس مبرّراً للحياد عن العدل والحق، فهذا الانضباط المطلوب في الأفعال هو جزء من تقوى الله ومراقبته. قال تعالى[139]: "لا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى". وأمر القاضي والحاكم والمسؤول في موقع الفصل بين الناس ألا يجاوز ما يعرف بضميره المصقول بالشرع من العدل. قال تعالى[140]: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل". ودعا أصحاب العقود لتسجيلها مكتوبة بيد إنسان موثوق يحفظ الحقوق بأمانة، فقال[141]: "وليكتب بينكم كاتب بالعدل".

ومن نظام العدل في الإسلام أن جزاء المعتدي أن يُفعل به مثل ما فعل، فهذا حق المظلوم، والعقاب الدنيوي عند هذا الحدّ لا يُعفي الظالم من صفة الظلم، قال تعالى

---

[136] سورة الأنبياء، الآية94.
[137] سورة الحج، الآية60.
[138] سورة الشورى، الآية34.
[139] سورة المائدة، الآية8.
[140] سورة النساء، الآية58.
[141] سورة البقرة، الآية282.

مبيناً حق المظلوم[142]: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم". فقد جعل العقوبة سبباً لحفظ النفوس والحقوق.

وبرغم ميل الإنسان إلى فكرة العدل، لكن أكثر الناس يُلجَؤون إليه إلجاءً، لأن مصالح الإنسان ومطامعه ما أيسر أن تتصادم مع مصالح الآخرين، والقرآن أخبر عن الإخفاق المتكرر للبشرية خلال العصور عن حمل الرسالة الإلهية بأمانة ونجاح، وذلك بسبب الميل إلى الظلم، فقال[143]: "وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً"، وكان لا بد من التصدي لرغبات النفس وأهوائها في سبيل إقامة العدل وبسط سلطانه، وقد حذر القرآن من الإصغاء لدوافع الأنانية ههنا، فقال تعالى[144]: "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا". وأمّا الذين قرروا الميل مع أهوائهم الشخصية، على حساب العدل وأصحاب الحقوق، فقد سلكوا طريق الضلال، ولن تلبث أن تعمى بصائرهم، وتستدرجهم شرورهم إلى ما لا ضابط له من الظلم والطغيان، وعندها يحقّ عليهم قوله تعالى[145]: "والله لا يهدي القوم الظالمين"، والمصير العادل لهؤلاء في الآخرة ما ذكره القرآن من أن[146]: "الظالمين لهم عذاب أليم".

2- صلة الرحم والجار:

الأصل في صلة الرحم دوام التواصل واستمرار العلاقات الطيبة مع الأهل والأقارب. ومن هنا كان إحسان المرء بطبيعة الحال متجهاً إلى قريبه أو إلى جاره الذي تجمعه إلى جواره علاقة من مصاهرة قريبة أو بعيدة، إلا أن يكون ضيفاً أو مسافراً.

في اللغة: "جاورَ الرجلَ ساكنَه. وجاور بني فلان: تحرَّم بجوارِهم. والجار: الشريك في العقار، والحليف، والناصر. واستجاره: سأله أن يُجيره. ويقال للذي يستجير بك: جار. والجار: الذي أجرته من أن يظلمه ظالم"[147]. و"استجار بفلان:

---

[142] سورة البقرة، الآية194.
[143] سورة الأحزاب، الآية72.
[144] سورة النساء، الآية135.
[145] سورة آل عمران، الآية86.
[146] سورة إبراهيم، الآية22.
[147] ابن منظور، لسان العرب. مادة "جور".

استغاث به والتجأ إليه. واستجار فلاناً: سأله أن يؤَمِّنَهُ ويحفظه. والجوار: العهد، والأمان"[148].

وفي اللغة: "الرَّحِمُ أسباب القرابة، والقرابةُ. وأصلها الرَّحِم التي هي منبِت الولد. وذَوو الأرحام هم الأقارب، ويطلق على كل من يجمع بينك وبينه نسبٌ، ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء. وبينهما رحِمٌ أي قرابة قريبة"[149]. و"وصلَ رحِمَهُ: أحسنَ إلى الأقربين إليه من ذوي النسَب والأصهار، وعطفَ عليهم، ورفق بهم، وراعى أحوالهم"[150].

في الحياة العربية القديمة كان تأكيد على هذا الخُلُق، وكثيراً ما تغيب فوارق التعبير بين الجار وبين ذي الرحم حين الكلام في هذا الموضوع، فهؤلاء في منزلة متقاربة، ثم إن في القيام بحقّ القريب وحقّ الجار فرصة لنيل وسام التحلّي بخلقٍ لصيق قد يكون الكرم ويكون الشجاعة أحياناً. وهذا النابغة ينحو باللائمة على قومه حين أحس منهم إهمالاً وتقصيراً بحق بعض أفراد العشيرة. يقول[151] :

أجِدَّكُمُ لا تزجُروا عن ظُلامةٍ سفيهاً، ولن ترعَوا لذي الودِّ آصِرَهْ؟[152]

لا يُنكَر الدافع الإنساني العميق والمشرّف لذلك الخلق في الجاهلية، أما في الإسلام فقد باتت صلة الرحم، والإحسان إلى الجار ومن في حُكمه، خلقاً يسهم في صون السلامة المعنوية والمادية للأسرة الواحدة والحيّ الواحد، سعياً نحو بناء أمّة صحيحة وقوية في وجه أعدائها. وأول ما يطالعنا في هذا المعنى نكير القرآن على من[153]: "يمنعون الماعون"، حيث ضمّ من يضنّون بالمعونة لجيرانهم إلى من يكذّبون بيوم الدين.

وأول من أمر القرآن برعايتهم والإحسان إليهم هم الوالدان، وليس هذا العمل تفضلاً من المسلم نحو أبويه بل هو أداء لحق مقدّس، وردّ لجزء بسيط من فضل

---

[148] مجمع اللغة العربية بمصر، المعجم الوسيط. مادة "جور".
[149] ابن منظور، لسان العرب. مادة "رحم".
[150] مجمع اللغة العربية بمصر، المعجم الوسيط. مادة "وصل".
[151] النابغة، ديوان النابغة الذبياني. ص153.
[152] الآصرة: الرحِم والقرابة.
[153] سورة الماعون، الآية7.

سابق، قال تعالى[154]: "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن"، وهذا الحق في الدين لا يتوقف على إسلام الوالدين، فإن جزاء تنشئتهما للولد لا يُبطله الكفر، فجاء قوله تعالى[155]: "وإن جاهداك على أن تشرك بي شيئاً فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً". والصلة للوالدين ماديّة ومعنوية حيث ينضبط الولد معهما بأقصى درجات الاحترام والتوقير، قال تعالى[156]: "إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما". وأمر بإظهار الرحمة التي تصل حد التذلل والانكسار لهما، قال تعالى[157]: "واخفِض لهما جناح الذل من الرحمة". فأين من هذا الخلق ما نجده اليوم في الغرب من دور العجزة والمسنين التي تغصّ بمن نسيهم أبناؤهم، وكفَوا أنفسهم مؤونة القيام بهم ورعايتهم؟

صلة الرحم والجار في مواجهة الاغتراب: إن المجتمع الذي يتساند فيه الأهل والأقارب في وجه الأزمات لا شك أنه سيكون في منأى عن حالات الاغتراب التي تصيب الفرد والجماعة بالشلل، وتعطل الطاقات بل تهدرها، وإننا نجد أن حق الصلة في القرآن، يشمل عموم الأقارب، قال تعالى:[158] "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى". وذكر أيضاً فئات من الناس مفردين ومجموعين، كاليتيم والمسكين والجار والغريب المنقطع، فقال[159]: "وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل"، وقال[160]: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله"، وشدّد بالنكير على من يقصّر بحق اليتيم وهو قادر على إعانته، وضمه ومن يهمل المساكين إلى من يكذبون بيوم الدين، قال تعالى[161]: "فذلك الذي يدُعُّ اليتيم . ولا يحُضّ على طعام المسكين".

---

[154] سورة لقمان، الآية14.
[155] سورة لقمان، الآية15.
[156] سورة الإسراء، الآية23.
[157] سورة الإسراء، الآية24.
[158] سورة النحل ، الآية90.
[159] سورة النساء، الآية36.
[160] سورة النور، الآية22.
[161] سورة الماعون، الآيتان3-4.

3- الإحسان وإبداء المعونة:

الإحسان عنوان عريض لفعل الخير، ومن أهم مظاهره العطاء المادي، وإذا كان الكرم خُلقاً مطلوباً ممدوحاً فإن ضِده، وهو البخل، صفةٌ مذمومةٌ تجلب العار لصاحبها. يقول النابغة هاجِياً[162]:

ألا إنما نيرانُ قيسٍ إذا شتَوا لِطارقِ ليلٍ مثلُ نار الحُباحِبِ[163]

وأما في الإسلام فالقرآن غنيّ بالمعاني التي تحثّ على العطاء، فالمؤمنون ينفقون من رزق الله الذي وهبهم بفضله، وهو رزق متجدد ليس مأسوراً بإرادة البشر وقهرهم، قال تعالى[164]: "ومما رزقناهم ينفقون". ولعل هذا من أسباب الربط بين الإيمان والإنفاق في قوله تعالى[165]: "فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير"، فوعدهم بالثواب الكبير. وتكرر في القرآن التذكير بأن الرزق من عند الله لا من البشر، وإن كانوا في كثير من الأحيان أسباباً ظاهرةً له، كما عند النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر، في قوله تعالى[166]: "نحن نرزقهم وإياكم".

وبيّن لهم أن الإحسان يبارِك فيه وينمّي أجره، فقال[167]: "ويُربي الصدقات"، وفصّل ذلك في صورة مغرية تزحزح السامع عن إمساكه، وتدعوه لأن يستزيد من رصيد الحسنات، فقال[168]: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء"، فأخبر أن النفقة يؤجر صاحبها بسبعمئة ضعف، بل قد ينالها كرم إلهي جديد فيزيدها فوق ذلك.

وقد نبه القرآن على ما يستميل المسلم من التسويف في الإحسان، ودعاه إلى التعجيل بالخيرات قبل أن يفاجئه الموت فينقطع عمله ويؤذيه طول أمله، قال

---

[162] النابغة، ديوان النابغة الذبياني. ص228.

[163] شتوا: حلّ عليهم الشتاء – الحباحب: هو ذُبابٌ يطير بالليل يُضيءُ ذنَبُه. كناية عن دِقّة ناره وخفوتِها، وعن بخل صاحب النار.

[164] سورة البقرة، الآية3.

[165] سورة الحديد ، الآية7.

[166] سورة الإسراء، الآية31.

[167] سورة البقرة، الآية276.

[168] سورة البقرة، الآية261.

تعالى[169]: "وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت". وصوّر لنا أحوال المحسنين بأموالهم، حيث لا تَحدّ عطاءهم ساعة من ليل أو نهار، ويكون في السرّ كما يكون في العلن، قال تعالى[170]: "الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيةً". كما أخبر بتقدير وثناء بالغ عن نموذج فريد في كرم الضيافة، فقال تعالى[171]: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة".

مع فضل الكرم فلا بد من الحكمة في إنفاق المال على وجوهه، ومن هنا كان من الواجب صونه من أيدي الجهلاء الذين يمكن أن يضيعوه بحماقتهم وتهورهم، قال تعالى[172]: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً". ومن أسباب إضاعة المال الإسراف في إنفاقه من غير منفعة حقيقية، أو حاجة مستحقة، قال تعالى[173]: "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين". والخير في الاعتدال والوسطية، وهذا هو حال المؤمنين[174]: "الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتروا". ومن أمثلة ذلك متعة الطلاق حيث دعا القرآن إلى إنهاء رابطة الزواج بخاتمة طيبة، وهي هدية يقدمها الرجل للمرأة بحسب قدرته، قال تعالى[175]: "ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره".

ولا يغيب عن المسلم في أثناء عطائه طلب الرحمة والرضا والقبول من الله لقاء عمله، وبهذا يتحقق معنى العبودية، قال تعالى[176]: "وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله". ومن الصدق في هذه الطاعة ألا يتخللها إيذاءٌ لشعور من نُحسن إليه، فإن هذا يُبطل الأجر ويحوّله إلى ذنب كبير، شأنه شأن من يرائي الناس بعمله، فإنه يمحق عمله، قال تعالى[177]: "لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس"، ولا

---

[169] سورة المنافقون، الآية10.
[170] سورة البقرة، الآية274.
[171] سورة الحشر، الآية9.
[172] سورة النساء، الآية5.
[173] سورة النساء، الآية27.
[174] سورة الفرقان، الآية67.
[175] سورة البقرة، الآية236.
[176] سورة البقرة، الآية272.
[177] سورة البقرة، الآية264.

يجد المحسن بعد ذلك لنفسه فضلاً على من أعطاه، ولسان حاله يقول[178]: "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً"، وأمّا أعلى درجات الأجر الإلهي على الإنفاق في وجود البر فهي أن يجود من أحبّ ماله وممتلكاته إلى قلبه، فبهذا يقدّم قربان الإخلاص إلى مولاه، قال تعالى[179]: "لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون".

فالكرم فضيلة عالية، يسعى بها المسلم في كل جهة يترك فيها رحمةً وأثراً طيباً، وذلك بعد أن يؤدي حق بيته وأهله، وهو حق يجتهد فيه العاقل ويستفتي قلبه فيه، حيث لا إفراط ولا تفريط، لكن القرآن أخبرنا عن صنوف من الناس مقدمين على غيرهم، وهم الطبقة الضعيفة من أفراد المجتمع، وهي طبقة بعيدة عن الأضواء تغيب عن استرضائها حظوظُ النفس، قال تعالى[180]: "ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً"، وقال تعالى[181]: "أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة"، ومن الآيات التي حددت مصارف الإنفاق قوله تعالى[182]: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها".

الإحسان قاهر لاغتراب الفرد: حين يُكفى الإنسان الفرد همَّه في أرضه وبلده، وحين يجد نصرة ممن حوله فأي مبرر يبقى للوقوع في أوحال الاغتراب وظلماته؟ إننا نجد أن البيان الإلهي لا يتردد في وصم الجاحدين لله بالبخل والإقصار عن فعل الخير، وذلك بعد أن استولت عليهم أنانيتهم، واستسلموا لنوازع النفس المادية وشهواتها القريبة، بسبب أنْ غابت عنهم أشواق الإيمان والتعلق بخالق الكون، وما وعد من الحياة الآخرة، فهم لذلك[183]: "لا ينفقون إلا وهم كارهون"، وإذا اضطرتهم الأنظمة الاجتماعية، وخشوا من عيون الناس وانتقادهم فعند ذلك[184]: "ينفقون أموالهم رئاء الناس". ويتكرر اتهام من لا يؤمنون بالله بالشح، وبما يتصل به من

---

[178] سورة الإنسان، الآية9.
[179] سورة البقرة، الآية91.
[180] سورة الإنسان، الآية8.
[181] سورة البلد، الآيات13-16.
[182] سورة التوبة، الآية60.
[183] سورة التوبة، الآية54.
[184] سورة النساء، الآية38.

قسوة القلب وقلة الرحمة، في مثل قوله تعالى[185]: "وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه"، والواقع المشاهد في عصرنا شاهد على صحة هذا المعنى.

ثانياً: أخلاق وسلوكيات خاصة بالمؤمنين

1- الأخوّة والحب في الله:

لرابطة الدم أهمية فطرية في نفس الإنسان، وقد ظلت على مرّ التاريخ مبعث قوة وحماية للأفراد أمام مصاعب الحياة وظروف الخطر، وهي لم تفقد قيمتها إلا في ما نجده اليوم بسبب انحلال الأسرة وأساسها في العالم الغربي. حين جاء الإسلام كانت البيئة الجاهلية محكومة بعصبية الدم والقبيلة، ولم يسعَ الإسلام للتشكيك في قيمة الأسرة ورابط القرابة، بل أوجب لهما حقوقاً عظيمة؛ لكنه جعل فوقهما رابطة الإيمان، فأوجد مفهوم الحب والبغض في الله، وجعل بين المؤمنين رابطة الأخوّة في الله، وهي ليست تعصباً دينياً طائفياً؛ ولا مبرراً لإيذاء غير المسلمين، وانتهاك حقوقهم، واستباحة أموالهم وأعراضهم؛ فالله لا يرضى بالظلم، وهو لا تعوزه القدرة على حساب من لا يؤمنون به في الدار الآخرة، بل إن القرآن دعانا –كما سيمر معنا- لإقامة علاقات طيبة مع أهل الكتاب يغمرها التسامح، ما لم ينالوا من المسلمين ولم يؤذوهم.

لما دخل الناس في دين الله، وهاجر النبي بأصحابه إلى المدينة، تآخَت القلوب من المهاجرين والأنصار، ووُئدَت الحزازات والفتن التي كانت تفتك بعرب المدينة بين الأوس والخزرج، وما ذاك كله إلا بشيوع الأخوة والحب في الله، وحدث ما يشبه المعجزة الاجتماعية، بل هي معجزة، في حصول ذلك الدفء والألفة بين الناس، بعد أن نخرت الأحقاد بينهم طويلاً، وعيّت الوسائل عن التقريب بين النفوس، قال تعالى مُذكّراً بفضله إذ ألّف بين قلوبهم[186]: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بينهم".

---

[185] سورة يس، الآية47.

[186] سورة الأنفال، الآية63.

وقد تكرر تسمية العلاقة بين المسلمين بالأخُوّة، والأخوة في الأصل أقوى علاقة إنسانية بعد علاقة الشخص بأبويه، قال تعالى[187]: "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم". وجعل بينهم حلفاً دائماً يتبادلون فيه التراحم والتعاضد في وجه المخاطر والمصاعب مهما كان نوعها، تعالى[188]: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض"، وتحوّل التوجيه الديني النظري إلى واقع مشرّف يسري في حياة المسلمين، وذلك قوله تعالى[189]: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم".

وكان من مستتبعات تلك الأخوّة أن من أكبر الكبائر عند الله أن يقتل المسلم أخاه المسلم، إلا إذا وقع ذلك خطأً بدون قصد، قال تعالى[190]: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً".

الأخوّة في الله تنفي الاغتراب: لا يخفى أن الأخوة في الله هي حاجز عظيم في وجه الاغتراب إذا تمّ أداء حقّها، فالمؤمن يجتهد في أن يطهّر قلبه من الأضغان والأحقاد نحو الناس عامةً، ويسأل ربه أن يعينه على ذلك، ويسعى لأن يحتفظ بأطيب المشاعر تجاه مَن تطهرت قلوبهم بتوحيد الله، فمن دعاء المسلم المتكرر[191]: "ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا".

إن عهد الأخوّة الإيمانية يمتد ليضرب في أعماق التاريخ إلى أول الخليقة، فالمسلم يرفع يديه داعياً بالرحمة والمغفرة لسائر إخوانه الذين سبقوه في سلوك طريق الله، قال تعالى[192]: "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان". وستكون القلوب غداً في الجنة طاهرة، وقد اغتسلت مما علق بها من أدران الدنيا وأحقادها، ويكون المؤمنون جميعاً إخوةً متحابين، قال تعالى[193]: "ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سرر متقابلين".

2- تقوى الله، وخوف الآخرة:

---

[187] سورة الحجرات، الآية10.
[188] سورة التوبة، الآية71.
[189] سورة الفتح، الآية29.
[190] سورة النساء، الآية92.
[191] سورة الحشر، الآية10.
[192] سورة الحشر، الآية10.
[193] سورة الحجر، الآية47.

بالتقوى يمتلئ القلب إجلالاً الله وتعظيماً، ويُفتح للنفس باب التلذذ بالتقرب من الله، وذلك بأداء مزيد من الطاعات وتحرّي اجتناب ما نهى عنه، فتلك حقيقة التقوى وثمرتها. وعند التحقق بها يمكن القول إن عنصراً ومكوناً سلوكياً جديداً قد انضم إلى هذه الشخصية المسلمة، وهي تسعى بصاحبها للقيام بالواجبات وأداء حقوق الخلق بمقتضى الكتاب والسنة. والخوف من الله تعبير آخر عن مضمون التقوى، وهو أحد جناحين يحلّق بهما المسلم في سماء الإسلام، وثانيهما الرجاء، فالمسلم على حال بين الخوف والرجاء، لا يميل كل الميل إلى أحدهما، فكلاهما وحده ضلال عمّا يريده الله.

ليس التحقق بالتقوى ميسوراً لكل نفس، فهو من علامات الإيمان العميقة، ويلزم لإمكان حصولها قهر النفس عن الكبر وعبادة الأنا، فثمة مَن[194]: "إذا قيل له اتقِ الله أخذته العزّة بالإثم". على حين يمتلئ قلب المؤمن الصادق بالرهبة والإجلال للخالق بعد أن يعرف عموم صفاته، ويدرك طرفاً من عظمته. وهو يقرأ في كتابه الآيات التي تزيد من رهبة الله في قلبه، فهناك أحياناً الأمر المباشر بالرهبة والحذر، كما في قوله تعالى[195]: "وإياي فارهبون"، وهناك الدعوة والأمر الصريح بتقوى الله، كما في قوله تعالى[196]: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته"، وفي القرآن ما يدعو لعدم الاغترار بالنفس وأعمالها، وما يستتبع ذلك من الخلود إلى الأمان والاطمئنان، كما في قوله تعالى[197]: "إن عذاب ربهم غير مأمون"، وهكذا نجد أن حال التقوى والخشية مطلوبة من المؤمن في سائر أحواله وأوقاته.

وخشية الله بعد ذلك تقود إلى تنظيم السلوك، وتفتح مسامع القلب لأوامر الله، فيسعى المؤمن إلى تنفيذها والخضوع لها. ويلين القلب لذكر الله فيصير وعاءً جديراً

---

[194] سورة البقرة، الآية206.
[195] سورة البقرة، الآية40.
[196] سورة آل عمران، الآية102.
[197] سورة المعارج، الآية68.

بتلقي الإرشادات الإلهية، والسير على الهدى، ويعلم التقيّ أن له موقفاً للحساب، قال تعالى[198]: "إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة".

وتفيض آيات القرآن بالإشارة إلى شعور عميق، يتحكم بدرجات متفاوتة بسلوك كل مسلم وأخلاقه، وهو الخشية والإشفاق من ذلك اليوم، قال تعالى[199]: "يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار"، وهذا تصوير فنّي حركيّ عميق، لحال الاضطراب والتخبّط الذي سيستولي على القلوب، وتبين معالمه على صفحات الوجوه يومذاك. والخوف فضلاً عن كونه علامة تصديق وإيمان، هو ردّ فعل طبيعي على تصوّر مشاهد العذاب والشرّ التي ستتناوش كثيراً من الخلق، قال تعالى[200]: "يخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً".

ليس في خوف المؤمنين معنىً سلبي كما قد يُتَوهم، فهو خوف يرقّق القلوب، ويردع أهواء النفوس، ويفتح أبواباً جديدة للبصيرة كي تتلقى كلمات الله، قال تعالى[201]: "إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة".

وفي مقابل الذعر المنتشر آنذاك سيكون جزاء المؤمنين الصادقين ما ذكره القرآن في قوله تعالى[202]: فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسروراً"، كما أخبر القرآن عن صنوف من الطائعين[203]: "لا يرهبهم الفزع الأكبر"، فهو يوم عظيم مهيب، لا يصيب بشرّه أولئك المؤمنين. وستكون وجوههم ناضرة تنطق بالبشر والسرور، ولا يعنيهم ما يموج فيه الخلق من الذعر والرعب، قال تعالى[204]: "وجوه يومئذ مُسفِرة . ضاحكة مستبشرة".

تقوى الله والاغتراب: للتقوى آثار وثمار تظهر في السلوك الاجتماعي فضلاً عن الفردي، فهي خلق ينعكس بخير عظيم على المجتمع حيث تسود فيه القيم الإنسانية وتضمحل فيه الأنانيات، وهذا كله يحصر مساحات الاغتراب التي قد تنهش الفرد

---

[198] سورة فاطر، الآية18.
[199] سورة النور، الآية37.
[200] سورة الإنسان، الآية7.
[201] سورة هود، الآية103.
[202] سورة الإنسان، الآية11.
[203] سورة الأنبياء، الآية103.
[204] سورة عبس، الآية40-41.

والجماعة. ومن فوائد التقوى أن الخوف من الله الخالق يعصم من الانجراف في تيار الخوف من الأسباب المخلوقة، ومنها البشر أنفسهم، قال تعالى[205]: "فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين".

ويكافئ الله المتقين بأن يورثهم مُلك الأرض، فلا يسلط عليهم الكافرين والظالمين، ويخلص الأرض من طغيانهم وقهرهم، فيبسط هنالك المؤمنون حكم الله، ويرتضيهم خلائف له فيها، قال تعالى[206]: "ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد".

ذاك من فضل التقوى في الدنيا، وأما عن فضلها وثمارها في الآخرة فمن ذلك أن المتقين الخاشعين في صلاتهم بشرى لهم الفلاح، قال تعالى[207]: "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون"، ومن لبس لبوس التقوى كان له جزاءُ محوِ ذنوبه، وله الأجر العظيم من الله، قال تعالى[208]: "ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويُعظِم له أجراً". ويبلغ درجة عالية من رضوان الله فلا يسخط عليه، فذلك من أعظم العطاء في الجنة، قال تعالى[209]: "رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه".

3- الزهد في الدنيا، والتعلق بالجنة:

المؤمن مدعو للتجهز لمغادرة الدنيا في كل وقت، فلا يتعلق قلبه بمتاع الدنيا، حلالِها فضلاً عن حرامها، ففي حلالها حساب وفي حرامها عقاب، وما هي إلا اختبار مليء بالفتن والجواذب، وقد حُفّت النار بالشهوات. ومن وعى الغاية من وجوده تضاءلت شهوات الدنيا في نفسه، واقتصر منها على ما أحلّ الله، وسخّر متاعها الذي آتاه الله لعمارة الأرض بالخير والمنفعة لخلقه، ابتغاء مرضاة الله، فتكون الدنيا بين يديه وقد أخرجها من قلبه! فتلك حقيقة الزهد المشروع وفائدته، وهو من أخصّ أخلاق المؤمن ودوافعه التي تحكم شخصيته وسلوكه، والمؤمنون في التزامهم بهذا الخلق على درجات بحسب اليقين والبصيرة والتفكر. وأما الجاحد فلا

---

[205] سورة آل عمران، الآية175.
[206] سورة إبراهيم، الآية14.
[207] سورة المؤمنون، الآية1.
[208] سورة الأعراف، الآية56.
[209] سورة البينة، الآية8.

يزهّده في الدنيا سوى عجزه المادي والجسدي عن استقبال لذائذها ومتعها، فإذا خلا من القدرة على نيل رغائبها زهد فيها متحسراً، واستعجل الموت ومفارقة الحياة.

ومن فضل الله على الناس أن جعل في الدنيا عيوباً تعين العاقل، إذا أراد أن يُخلّي قلبه منها، ليتشوف للآخرة وتسموَ همّته إليها، فلم يجعل للذائذها دواماً وبقاءً، فما أن أسرع أن تزول، بل إن عمران الأرض وخيراتها معرّضة في كل وقت للخراب والدمار، قال تعالى[210]: "فازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً".

وإذا لم يحلّ بها خراب فالإنسان فيها لا يلبث أن يرحل بعد سنوات من عيشه، فلا تهنأ له إقامة، ونعيمه منقطع بالموت، قال تعالى[211]: "كل نفس ذائقة الموت". فإذا مات ترك وراءه الأراضي والزروع والثمار، يتنعم بها ورثته ويحمل هو وزر المساءلة عن حقوقها الشرعية، هل أدى حقّ الله فيها؟ قال تعالى[212]: "كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين".

والدنيا محلّ اختبار وامتحانات لأخلاق المرء وسلوكه وإيمانه، في إقبالها وإدبارها، فلا يستقر لها حال يطمئن له، قال تعالى[213]: "ونبلوكم بالخير والشر فتنة". وهو فيها ميال لحب الشهوات ومقاربتها والاستكثار منها، كما قال تعالى[214]: "زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة"، فيكون عرضةً للانجذاب والركون إليها، ويؤخذ ببريقها الذي قد يعمي بصيرته، وقد نبّه القرآن على هذا، لئلا ينجرف المؤمنون العقلاء في سرابها الخادع، قال تعالى[215]: "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور". وكلما زاد اغترار

---

[210] سورة يونس، الآية24.
[211] سورة الأنبياء، الآية35.
[212] سورة الدخان، الآيات26-28.
[213] سورة الأنبياء، الآية35.
[214] سورة آل عمران، الآية14.
[215] سورة آل عمران، الآية185.

الإنسان بظاهرها قسا قلبه وساءت أخلاقه، وكان مظنة أن يفقد إيمانه، قال تعالى[216]: "زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا".

وقد وقف القرآن طويلاً لعقد مقارنات بين بريق الدنيا السريع الأفول، وبين نعيم الآخرة للمحسنين، فحثّ على التزوّد من فرصة الحياة الدنيا لإعمار الآخرة؛ فبالموت ينقطع عمل الخير، ويتوقف المؤمن عن كسب الحسنات، ومن هنا نجد في القرآن حثّاً على الزهد بالدنيا وتقديم التضحيات، ومنها الإقبال على الاستشهاد في سبيل الله، قال تعالى[217]: "فليقاتل في سبيل الله الذين يَشْرون الحياة الدنيا بالآخرة". ومنها الصبر على الإيذاء تجنباً للمنافسة على متاع الدنيا بغير الوسائل التي شرعها الله، وهذا نجده في شرائع الدين منذ أول الخليقة، فابن آدم المؤمن ترفّع عن الغدر بأخيه، ورضي أن يفقد من متاع الدنيا في سبيل حفظ الآخرة، وقال له[218]: "لئن بسطت يدك إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك".

التعلق بالآخرة يضعف اغتراب الدنيا: الجنة سلعة الله، وهي سلعة غالية لا تُنال بسهولة، وبدون مشقات وامتحانات، ويعبُر إليها العبد المجتهد بسلام، والخسران كله في الحرمان من نعمة الجنة، وقبل اللذائذ المادية فيها أعظم شيء وهو حصول العبد على رضوان الله ورحمته، قال تعالى[219]: "فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز". والمقارنة شاسعة البون بين حال هؤلاء المؤمنين، وحال من قادهم شقاء نفوسهم إلى عقاب الله وعذابه، قال تعالى[220]: "لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون".

وسبيل دخولها هو الصلاح بمفهومه الواسع بعد الإيمان والعقيدة الصحيحة، ويشمل العبادات بصورها المتنوعة الكثيرة، قال تعالى[221]: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة". ويكون شركاءهم فيها أهلوهم وإخوانهم ما داموا

---

[216] سورة البقرة، الآية212.
[217] سورة النساء، الآية74.
[218] سورة المائدة، الآية28.
[219] سورة آل عمران، الآية185.
[220] سورة الحشر، الآية20.
[221] سورة البقرة، الآية82.

قد ساروا مثلهم على نهج الصلاح وتقوى الله، قال تعالى[222]: "يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم".

3.2.المبحث الثاني: صادّات إسلامية للاغتراب، في القصيدة

شاعرنا ابن زريق - كما تخبر القصيدة - إنسان طيب القلب يفيض وجدانه رقّة ووداعة، شغلَنا على طول القصيدة بحديث الألم واللوعة، وحديثه فيها كان غوصاً في آلام الذات التي لم يخرج منها إلا إلى ذات المحبوبة، حيث جعلها شريكته في العذاب، وفُجع بالبعد عنها وهو في أشد ساعات الإحساس بالمرارة وذروة حالات الألم، وقد حاق به الاغتراب النفسي/الذاتي، والخارجي/المكاني. والملاحظ أن ما أصابه على شدته لم يستدع منه ردود فعل عدوانية تجاه الآخرين، ولم يجعله يكفر بقيم المجتمع وأخلاق الناس، بل كان انفعاله سلمياً، وأبدع فكره المعجون بالقهر تأملات ذاتية عميقة فاضت بالحكمة والبصيرة، وتوجهت تلك الطاقة في النهاية إلى ذاته في الداخل لا إلى الخارج مع المجتمع، فقتلتْه وحيداً مشرداً في غرفته في الخان. إن الحال التي آل إليها لا تختلف عن مصير ابن آدم الأول، الذي قال لأخيه الأناني الطماع: "لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله"[223]، وكان مآله القتل وفراق الدنيا خالياً منها، ولم تقارف نفسه أو يدُه ما حرّم الله. ولعل شاعرنا لو أنه قرر بعد الموقف الذي خُذِلت فيه أمانيه أن يصبح من قطاع الطرق، وسعى في طلب الرزق بين اللصوص والمجرمين، لظلّ حياً سنواتٍ طويلة!

لا شك أن تلك الروح السلمية التي تمتع بها الشاعر، واختياره لطريق الصبر على ما حلّ به، فضلاً عن نهايته الفاجعة، كل ذلك ضاعف من تعاطفنا معه، وألهب قبلنا مشاعر رواة الأخبار والأشعار. وقد جاءت تلك الآلام كما أشرنا ممزوجة برحيق الحكمة وحسن الاعتبار.

---

[222] سورة الرعد، الآية23.
[223] سورة المائدة، الآية28.

لم يفقد الشاعر في دوامة الاغتراب إيمانه بل ظل فكره سليماً ويقينُه بالله صحيحاً، وراح يجاهد ويستمسك ما أمكنه بهما، وإن كان قد استسلم لانفعالاته البشرية التي ليس لأحد أن يحاسبه عليها. نحن نريد هنا أن نتلمس بشيء من التحليل، آثار تلك الروح المؤمنة وقد أبت أن يهتز بنيانها النظري، فراحت تتقوى ما استطاعت في وجه مأساة الشاعر وأزمته القائمة:

3.2.1.المطلب الأول: اليقين والثقة بالله

جوهر العبادة في صلة حيّة بالمعبود، ولا عبادة بدون ثقة ويقين بالخالق، حتى إن اهتزاز اليقين بالله يزلزل بناء الإيمان نفسه، والقرآن بكلماته ومعانيه يثبت قلب المؤمن على إيمانه، وهذه إحدى ثمرات المداومة على تلاوته، وآيات الكتاب تعلم المؤمنين الثبات واليقين من خلال مواقف الحياة المختلفة، ففي مجال إنفاق المال والعطف على المحتاجين يحث القرآن على الإحسان ويخبر المحسنين بأن ما يسخون به من العطاء في سبيل الله يعوضه لهم، قال تعالى[224]: "وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه".

ويعلم القرآن المؤمنين أن يتوكلوا على الله بعد أن يقوموا بالأسباب التي سنّها في الكون، فهذا التوكل جزء من الإيمان والبقين. وبعد اتخاذ الأسباب، ووضوح الرؤية للعمل يتوّج المؤمن ذلك باليقين بأن الله هو الفاعل الحقيقي، وبيده كل شيء، فيتوكل عليه لإنجاح سعيه في بلوغ ما أراد، قال تعالى[225]: "فإذا عزمتَ فتوكلْ على الله"، ويتكرر هذا المعنى في الكتاب الكريم، في مثل قوله تعالى[226]: "وعلى الله فليتوكل المؤمنون". وإن الذين يتوجون بداياتهم باسم الله يستحقون مكانة عند ربهم، إذ[227]: "إن الله يحب المتوكلين". وجزاء المتوكل على الله أن يقضي له ما أراد، ولكن بحسب

---

[224] سورة سبأ، الآية39.
[225] سورة آل عمران، الآية159.
[226] سورة المجادلة، الآية10.
[227] سورة آل عمران، الآية159.

تقدير الله ومشيئته، وذلك الخير والفضل، قال تعالى[228]: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه". والمؤمن إذ يتوكل على الله يعلم يقيناً أنه يضع حاجته عند من لا تضيع حاجته ولا تُنسى، فقد قال الله[229]: "وكفى بالله وكيلاً".

نظرة في القصيدة: وإذا انعطفنا نحو كلمات الشاعر في قلب محنته وجدناه حاضر العقل واعي الفكر، لم يشرد به ما أصابه من الشقاء عن مضمون الثقة واليقين بالله، وتلك عقيدة المؤمن الصحيحة، ونجد ذلك عنده في أكثر من موضوع أو فكرة.

1- إن الذي أخرج الشاعر من أرض العراق إلى أرض الأندلس هو الفاقة والحاجة وطلب الرزق، وهو يعلم أن الرزق مقسوم من الله تعالى، لكن الحصول عليه مشروط بالسعي والحركة، وهذا السعي هو سبب ظاهري لا يعدو أن يكون أداة خلقها الله امتحاناً للناس مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن يعلم أنها صورة والكافر يرى أنها حقيقة تتحكم في مصيره وثمرة عمله، على أن يقين المؤمن يمنحه شموخاً وإباءً وتصالحاً أكبر مع الواقع وتأخيراً للاغتراب عنه، بخلاف غير المؤمن الذي تستعبده الأسباب، يقول ابن زريق:

وما مجاهَدةُ الإنسانِ واصِلةٌ رزقاً ولا دَعَةُ الإنسانِ تَقطعُهُ

بكلمات أخرى إن السعي في حدّ ذاته لا يأتي هو بالرزق، فلعله أن يجري إنسان ويسعى ليل نهار فلا يحصّل شيئاً، وفي المقابل فإن فقد الأسباب المادية ليس ملزماً للعوز والعدم. وذلك أن الرزاق هو الله، قد قضى بحكمته لكل عبد رزقه في هذه الدنيا، ولم يخلق أحداً ليتركه شريداً تائهاً في هذا العالم بلا دليل، يقول:

والله قسّم بَينَ الخَلقِ رزقَهُمُ لَم يَخلُق اللهُ مخلوقاً يُضَيِّعُهُ

[228] سورة الطلاق، الآية3.
[229] سورة النساء، الآية81.

لكـن الشـحّ وحـب المـال يسـري فـي النفـوس، فتظـل سـاعية فـي كـدّ وهـمّ لتحصـيله، فـلا يمـلأ جـوف ابـن آدم فـي النهايـة إلا التـراب، ولعلـه يـؤوب بـالفقر ويقعد أخيراً عن بلوغ أحلامه، يقول:

لكنَّهُم كُلِّفُوا حِرصاً فلَستَ تَرى مُستَرزِقاً وَسِوى الفاقاتِ تُقنِعُهُ

والتكالـب علـى طلـب المـال مـع سـبق الإيمـان واليقـين بـأن الـرزق محـدد معلـوم هـو نـوع مـن الظلـم والتمـادي، وهـو تجـاوز يمكـن أن يقـود صـاحبه إلـى الهـلاك أو الشقاء، يقول:

والحِرصُ في الرِزقِ والأرزاقُ قَد قُسِمَتْ بَغيٌ ألا إنَّ بَغيَ الْمَرء يَصرَعُهُ

والمتبصـر فـي أحـوال المعـاش التـي يتقلـب فيهـا النـاس يـرى كيـف تجـري الأرزاق بـلا ضـابط مـن المنطـق البشـري، وهـذا يؤكـد حقيقـة أن الـرزق مـن عنـد الله وأن علـى المحتـاج أن يقـرع بـاب الله دون سـواه، فعنـد الرجـاء، ومـن وقف به لم تعصف به رياح الغربة والألم، يقول:

والدهرُ يُعطي الفتى مِن حيث يمنعُه إرثاً ويمنعُهُ مِن حيث يُطمِعُهُ

2- مـن أيقـن أن أمـره وأمـر كـل شـيء بيـد الله سـلّم لله بكـل شـيء، ولجـأ إليـه فـي سـائر حاجاتـه، واسـتودعه ضـعفه ورغباتـه وأحلامـه، ولـم يسـتول عليـه شـعور بـالقلق أو خـوف الضـياع علـى مـا يضـعه أمانـة عنـده، والشـاعر قـد غـادر بغـداد مخلّفـاً فيهـا أثمـن مـا يملـك قلبـه وهـو محبوبتـه، فلـذلك هـو برجاحـة عقلـه وبُعـد نظـره وقـوة إيمانـه يعلـن لله الخـالق أنـه يضـعها أمانـة عنـده وديعـةً، كـي لا ينشغل باله في غيابه عنها، يقول:

أستَودِعُ اللهَ في بغداد لي قمراً بالكَرخِ مِن فَلَكِ الأزرارِ مَطلَعُهُ

ويكـرر هـذا المعنـى بلفـظ آخـر غيـر اسـتيداع الوديعـة، وهـو أن يـذكر موضـع الأمانـة وهـو الذمـة، فيجعـل محبوبتـه محروسـة فـي ذمـة الله، ويتغنـى بـالحنين إلـى المنـزل الـذي تركهـا فيـه، ويـدعو بالسـقيا لتلـك الأرض، علـى طريقـة الشعراء العرب القدامى من أيام الجاهلية، يقول:

في ذمَّةِ اللهِ مَن أَصبَحْتَ مَنزلَهُ وجادَ غيثٌ على مَغناكَ يُمرِعُهُ

والشاعر إذ يدع المحبوبة أمانة في رعاية الله يعلم أنها باتت في حرز مكين، لكنه يأمل أن يكون اللقاء في الدنيا قبل الآخرة، وهذا شأن الإنسان في كل حين يطلب حاجته العاجلة، ونراه ينتظر بلهفة وحرارة ذلك الاجتماع واللقاء من جديد، يقول:

عَسى الليالي التي أضنَت بِفُرقَتِنا جِسمي سَتَجمَعُنِي يَوماً وَتَجمَعُهُ

3.2.2.المطلب الثاني: الحكمة، وشكر المنعم

أولاً- الحكمة مظهر التعقل في اللسان والتفكير. في اللغة: "الحكيم ذو الحكمة، والحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يُحسِن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. والحُكم: العلم والفقه والقضاء بالعدل. ويروى: إن من الشعر لحِكمةً، وهو بمعنى الحُكْم. ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمَتْه التجاربُ. والحكيم: الْمُتْقن للأمور"[230]. و"علم الحكمة: الكيمياء والطب. والحكيم: الفيلسوف. والْمُحكَم: الْمُتقَن"[231].

واصطلاحاً هي "إحدى الفضائل الرئيسية الأربع. وتعني قوة الروح ومعرفة الحق"[232]. فهي وسط "بين السفَه والبلَه"[233]. وهي "علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية"[234]. ويمكن القول إنها "علم الأشياء الكلّية بحقائقها، واستعمال ما يجب استعماله من الحقائق"[235].

وقد أخبر الله في كتابه المبين أنه أحكم الحاكمين، وأكرم البشر بالعقل وإدراك الأمور، واختص طائفة منهم بإنعام النظر وبالرؤية الباصرة،

---

[230] ابن منظور، لسان العرب. مادة "حكم".
[231] مجمع اللغة العربية بمصر، المعجم الوسيط. مادة "حكم".
[232] وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، ط 2007م. ص284.
[233] مجموعة مؤلفين، معجم المصطلحات الأخلاقية. ص33.
[234] الجرجاني، معجم التعريفات. ص81.
[235] جهامي، د. جيرار، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب(بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1988م). ص289.

فهو[236]: "يؤتي الحكمة من يشاء"، وتلك نعمة عظيمة، ومسؤولية كبيرة بالوقت نفسه،[237]: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً"، وقد آثر أنبياءه بنصيب وافر منها، فهذا داود عليه السلام قد منّ الله عليه قائلاً[238]: "وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب".

ومن مظاهر الحكمة في سلوك المؤمنين أنهم يدعون إلى الله على بصيرة، ويعاملون الناس بالصبر واللين[239]: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً". والمؤمن إذا دعا إلى الإسلام وإلى أداء الطاعات كان له أسلوب حكيم، فيدعو بأناة وصبر، والنبي ﷺ يقول القرآن على لسانه[240]: "هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني". وربما بدر من بعض المسلمين سلوك لا يليق بالحكمة والأدب، فيجري تنبيههم وتعليمهم، كما في حال من كانوا ينادون النبي الكريم فقال الله في حقهم:[241]: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون".

ثانياً- حمد الخالق والثناء عليه سلوك وثيق الصلة بعبادة الله، حيث يدرك المؤمن أنه ما من فضل أو نعمة في الوجود إلا بكرم وعطاء من الله. وقد بيّن سبحانه أن الجوامد والعجماوات تسبح بحمده بطبيعة خلقها[242]، لكنه دعا الإنسان المخلوق العاقل لأن يحدد طريقه، فيكون عمله دليلاً عليه، أيشكر أم يكفر؟ فأما المؤمن فيعرف فضل الله عليه ويعلنه للآخرين، ويفيض قلبه بالمحبة لخالقه الذي أعطاه، وأما الجاحد فينظر إلى ما أصاب من النعم والنجاح في الحياة فيجد أنه من جهده وفضل نفسه، فيزداد كبراً وغروراً وعماءً، أو قد يراه من فضل الناس عليه، فيُذلّ نفسه إليهم، وينسى المنعم الحقيقي.

---

[236] سورة البقرة، الآية263.
[237] سورة البقرة، الآية269.
[238] سورة ص، الآية20.
[239] سورة الفرقان، الآية63.
[240] سورة يوسف، الآية108.
[241] سورة الحجرات، الآية4.
[242] إشارةً لقوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبّح بحمده". سورة الإسراء، الآية44.

كـرّم الله الإنسـان وجعلـه سـيد الأرض، وآتـاه مـن أسـباب الـتعلم، وفهـم أسـرار الكـون مـا يمكّنـه مـن بسـط سـيطرته فـي أرجـاء المعمـورة، وزوّده فـي سـبيل ذلـك بحـواسّ وقـوى تعينـه علـى بلـوغ تلـك الغايـة، ومـا هـذا السـلطان إلا لغايـة أعلـى وأسـمى، وهـي تحقيـق الخلافـة الصـالحة لله فـي الأرض، ومـن هنـا كانـت نعـم الله علـى البشـر عصـيّة علـى العـدّ والحصـر، قـال تعـالى[243]: "وإن تَعـدّوا نعمـة الله لا تحصـوها". والبشـر كثيـراً مـا ينسـون مصـدر تلـك الـنعم، ويلـزمهم تنبيه بعد التعليم بمصدر هذه الخيرات.

والله وعـد الشـاكرين بمزيـد العطـاء فـي الـدنيا، قبـل الثـواب والأجـر فـي الآخـرة، وهـذا مـن كرمـه وفضـله، قـال تعـالى[244]: "لـئن شـكرتم لأزيـدنكم". بـل إنّ مِـن رحمتـه سـبحانه أنـه يهيـئ مـن الظـروف مـا يعـين الـذين فـي قلـوبهم معـدنُ خيـر للاسـتزادة مـن الطاعـات، ليـؤجرهم عليهـا، ومـن تلـك الطاعـات الحمـد والشكر، قال تعالى[245]: "ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون".

والمـؤمن يعلـم أن الـنِّعم واللذائـذ التـي تحـفّ بـه مـن كـل حـدب وصـوب، ليسـت عبثـاً ولا مصـادفةً، وإنمـا هـي امتحـان، فـإن ذكـر الله وحمـده فقـد نجـح وأفلـح، وإن اغتـرّ بمـا أوتـي ونسـي الواهـب الكـريم فقـد خـاب وخسـر. هـذا سـليمان عليـه السـلام الـذي آتـاه الله ملكـاً عظيمـاً، نظـر بحكمـة فيمـا أوتـي مـن السـطوة والسـلطان، فلـم يـزده ملكـه إلا تعظيمـاً لمـن تفضـل عليـه بالعطـاء، و[246]: "قـال هذا من فضل ربي ليبلُوَني أأشكر أم أكفر"؟

وفـي مقابـل المـؤمنين الشـاكرين بشـر كثيـرون تسـكرهم النعمـة الحاضـرة وينسـون المـنعم، وقـد نبّـه القـرآن علـى هـذه الحقيقـة، فقـال تعـالى[247]: "وإذا أنعمنـا علـى الإنسـان أعـرض ونـأى بجانبـه". ولـذلك كـان مـن رحمـة الله بطائفـة مـن عبـاده أنـه يقلّـل أرزاقهـم، ولا يفـتح لهـم أبـواب الـدنيا ونعيمهـا، ومـا ذاك إلا

---

[243] سورة النحل، الآية18.
[244] سورة إبراهيم، الآية7.
[245] سورة البقرة، الآية52.
[246] سورة النمل، الآية40.
[247] سورة الإسراء، الآية83.

ليعصمهم من فتنتها وسحرها الذي سيغشى بصائرهم إذا ذاقوه. والقرآن يخبرنا عن أقوام حلّ بهم غضب الله في الدنيا قبل الآخرة، حين نسوا فضل الله، قال تعالى[248]: "وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف".

نظرة في القصيدة: من كانت له فكرة كان له بكل شيء عبرة، والحكمة ضالة المؤمن، يستمسك بها في وجه أعاصير الحياة ومتاهات الفكر، والشاعر قد وجد نفسه وحيداً مرمياً في أرض بعيدة، وقد باتت محبوبته بعيدة عن مرمى إرادته وبصره، فبات كمن كان ملكاً فضيع ملكه بسوء تدبيره. ومع المرارة القاتلة التي سكنت فؤاد الشاعر فإن نفسه المجبولة على استخلاص الحكمة والإصغاء إلى الحق وصوت العقل أبت إلا أن تجعله يخرج بحكمة عميقة مما جرى له، فهو يعترف بأنه كان ذلك الملك الذي لم يحسن قيادة مملكته، فكان العقاب الطبيعي له أن يفقد إدارة تلك المملكة، وهو يصوغ تلك الحكمة بكلمات قليلة جامعة، يقول:

أُعطيتُ مُلكاً فلم أَحسِن سياستَه وكلُّ مَن لا يَسوسُ الْمُلكَ يُخلَعُهُ

وينتقل الشاعر إلى حكمة أخرى، حيث يبدو أن خيبته بما قاد نفسه إليه جعلته يسيء الظن بنفسه، ويعود على نفسه بما يسمى جلد الذات، فنجده يكاد يتهم نفسه بقلة الشكر على النعمة التي كانت لديه ففرّط فيها، ويعود من جديد إلى ميزان الحق الذي يعرفه، فإن من لا يشكر نعمة الله عليه يقود نفسه إلى الحرمان منها، مثلما أن حسن شكرها يزيد من عطاء الله له، يقول:

ومَن غَدا لابِساً ثوبَ النّعِيم بلا شُكرٍ عليهِ فإنَّ اللهَ يَنزِعُهُ

3.2.3.المطلب الثالث: الصبر

لا تُنال الرغائب بالدعة واللين، والصبر كان على الدوام فضيلة عليا لدى العقلاء وأصحاب الهمم العالية، فبِه يقوى الإنسان على مواجهة الصعاب وتحدّيها، وبحسب تمكّن الغايات من النفوس يكون الصبر، وبالصبر يتحقق

[248] سورة النحل، الآية112.

عمـران الأرض ونماؤهـا وتقـدمُها. وبدونـه يعجـز كـل أحـد عـن التقـدم فـي طموحه.

ومـا دامـت الحيـاة الإنسـانية فـي حركـة وتفاعـل فـلا بـد مـن الصـبر، والعلاقـات الاجتماعيـة امتحانـات لـه، قـال تعـالى[249]: "وجعلنـا بعضـكم لـبعض فتنـةً أتصبرون".

والصـبر فـي القـرآن أنـواع، فمنـه الصـبر علـى الطاعـة، كمـا فـي قولـه تعـالى لمحمـد ﷺ[250]"واصـطبر لعبادتـه"، ومنـه الصـبر عـن المعصـية، ومنـه الصّـبر علـى أقـدار الله المؤلمـة. وجعـل الصـبر علـى أقـدار الله، والتواصـي بـه، أحـد الأركـان الأربعـة للنجـاة مـن الخسـران، فـي قولـه تعـالى[251]: "وتواصـوا بالصـبر". فحـال المـؤمن الصـبر، يسـتعين بـه علـى صـلاح دنيـاه وآخرتـه، وعلـى إعمـار الأرض، قـال تعـالى[252]: "واسـتعينوا بالصـبر والصـلاة". ولا بـد منـه لكـل صـاحب عزيمـة وسـعي فـي الوصـول إلـى هـدف، وهـو رديـف التقـوى فـي هـذا، قـال تعـالى[253]: "وإن تصـبروا وتتقـوا فـإن ذلـك مـن عـزم الأمـور". والمؤمنـون يصـبرون بأنـاة علـى الأذى، فـي سـبيل نشـر الخيـر ونشـر دعـوتهم، قال تعالى[254]: "ولنصبرنّ على ما آذيتمونا".

وقـد وعـد الله الصـابرين بتأييـد وعطـاء فـي الـدنيا والآخـرة، وهـو يمـنحهم تثبيتـاً علـى ثبـاتهم، ولـذةً علـى صـبرهم فـي سـبيله؛ ولكـن لا بـد مـن امتحـان الصـبر مشـفوعاً بآلامـه، فـي صـور متنوعـة تمـرّ فـي حيـاة المسـلم، قـال تعـالى[255]: "ونقـص مـن الأمـوال والأنفـس والثمـرات وبشِّـر الصـابرين".

---

[249] سورة الفرقان، الآية20.
[250] سورة مريم، الآية65.
[251] سورة العصر، الآية3.
[252] سورة البقرة، الآية45.
[253] سورة آل عمران، الآية186.
[254] سورة إبراهيم، الآية12.
[255] سورة البقرة، الآية156.

وأجرهم محفوظ بعد ذلك الألم بعهد الله، قال تعالى[256]: "واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين"، فهذا يحثّهم على الصبر والثبات حتى يأتي أمر الله.

وينال الصابرون في سبيل الله المكانة العليا في الجنة، وهذه المكانة[257]: "لا يلقاها إلا الصابرون"، ويكون لهم الرضا من الله، وألوان من النعيم والسرور لا تُحصى، قال تعالى[258]: "وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً". وكلما اشتدت آلام الدنيا ورافقها الصبر على أمر الله وقضائه كان ذلك أدعى لبلوغ المنزلة التي فيها عطاء مفتوح بلا حدود، وهي في قوله تعالى[259]: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب".

نظرة في القصيدة: يتمسك الشاعر بالحياة، وهو حق كل نفس بشرية بل هو جبِلّته التي فُطر عليها، ولا بد للحياة من صبر على المشاق، والصبر من أخصّ أخلاق المؤمن بالله، وبه يستعين على حالات الاغتراب ويتصدى له. ونحن نجده يصور لنا حاله وهو يترنح بين الصبر والتماسك، وبين التداعي والانهيار، فيقول:

لا أَكُذب اللهَ ثوبُ الصَبرِ مُنخَرقٌ عَنّي بِفُرقَتِهِ لَكِن أُرَقِّعُهُ

ونجده يظل مستمسكاً بحبل الصبر على ما حلّ به من عذاب الفراق لمحبوبته، فقد حالت أحداث القدر بينه وبينها، وانقطعت أسباب السلام والسرور بينهما، بعد أن فرّق المكان النائي بينهما، وإن في تصبره ما يؤجل شقاء الاغتراب لديه، يقول:

لَأصبِرَنَّ لِدهرٍ لا يُمَتِّعُنِي به كما أنّه لا يُمَتِّعُهُ

ويختتم عرض موقفه مع موضوع الصبر بقناعة نفسه أن مآل صبره إلى الفرج، فهذا تفاؤل عظيم في قلب المحنة، والتفاؤل شأن المؤمن في وجه المصاعب والمخاطر التي تحيق بآماله وسعيه، لكن يقين المؤمن يجعله

---

[256] سورة هود، الآية115.
[257] سورة القصص، الآية80.
[258] سورة الإنسان، الآية12.
[259] سورة الزمر، الآية10.

يسلم بأن الله يختار له الخير ما دام واقفاً ببابه، وهو لا يعرف أين الخير ينتظره، وكذلك لم يعرف الشاعر أن الرحيل عن دنيا الناس العابرة هو الذي كان ينتظره، وبعده رحمة الله ومثابته على الصبر، يقول:

عِلماً بأنَّ اصْطِباري مُعقِبٌ فَرَجاً فَأضيَقُ الأمرِ إنْ فَكَّرتَ أوسَعُهُ

3.2.4.المطلب الرابع: الاستسلام والتسليم لأمر الله

ما الإسلام سوى إعلان الاستسلام للخالق سبحانه، والتسليم والإسلام من مادة لغوية واحدة، والتسليم هو الرضا بأمر الله، بدون تذمر أو اعتراض أو احتجاج، ولهذا التسليم معانٍ ووجوه، أهمها رضا الإنسان بقضاء الله وقدره، وكذلك استسلام قلبه وعقله وفعله لما شرع وأمر، وفي هذا كله نمط سلوكي يتحلى به المسلم، وتتميز به شخصيته، وهو جزء من منظومته النظرية الشاملة.

ومن صور ذلك اليقين أن المؤمن يعلم أن الله له[260]: "غيبُ السموات والأرض"، فهو يعلم كل ما يجري فيهما، ولعالم الغيب مفاتيح وأسرارٌ لا قِبَل للإنسان باكتناه حقيقتها، فالله[261]: "عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو"، وهو الحكيم سبحانه خلق الأكوان والخلائق وقدّر حركة الأشياء وأعطاها أعمالها، فهو[262]: "الذي خلق فسوّى . والذي قدّر فهدى"، فالمكَوَّنات تجري بما أمر، ولها من الفعل والقدرة ما أولاها، وذلك بتقديرٍ حكيم يليق بعظمته، قال تعالى[263]: "إنا كلّ شيءٍ خلقناه بقدَر".

على أن في هذا القضاء الإلهي امتحاناً للإيمان؛ فإن حمد العبد ربه على ما أعطى، وصبر على ما منع فقد نجح؛ وإن تمرد وسخط وأساء الأدب، فقد أخفق وباء بسخط الله، والقرآن ضرب لنا مثلاً على سوء تقدير ضعيفي الإيمان، كعبد السوء إذا أُعطي رضي، وإن مُنِع سخط وتمرد، قال

---

[260] سورة النحل، الآية77.
[261] سورة الأنعام، الآية95.
[262] سورة الأعلى، الآيتان2-3.
[263] سورة القمر، الآية49.

تعالى[264]: "فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربِّي أكرمَنِ . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن"، وقد غاب عنه أن متاع الدنيا في حرامه عقاب وفي حلاله حساب.

وأما الجاحد فلا يعرف معنى التسليم، فهو في صراع مع نفسه ومحيطه، وقد يصيبه قهر وانكسار إذا خابت أمانيه، فلا يجد ملاذاً يعزّيه ويواسيه، فيبوء بغضب على خسران. وإذا نال شيئاً من متاع الدنيا جعل الفضل لنفسه أو لبشر مثله، فاستعبدته الأسباب. وقد نقل لنا القرآن طرفاً من مماراة المشركين وكذبهم على أنفسهم، ومحاولتهم المكشوفة للتملّص من التسليم بالعبودية لله، حيث ادّعَوا بأن الله لو أراد لهم التوحيد لكان منهم ذلك بسلطانه وأمره ولم يكن لهم الخروج عليه، وقالوا[265]: "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء"، وقد علموا أنه جدال بالباطل.

نظرة في القصيدة: وإذا أردنا أن نتلمس معنى التسليم في كلمات الشاعر لم نعدم ذلك، فهو يخبرنا عن شقائه بالسفر والتنقل في أنحاء المعمورة، في حرمان من حال الاستقرار والثبات، ولا ينسى أن يعلن أنه ما زال محصوراً في دنيا الله التي هي من خلقه وتحت سلطانه، يقول عن نفسه:

كَأنَّما هو فِي حَلٍّ وَمُرتحَلٍ مُوَكَّلٌ بِفَضاءِ اللهِ يَذرَعُهُ

وهو يستسلم لقدره في مصالحة مع الذات لا يقوى عليها إلا المؤمن بالله والموقن به، ولو كان بلا إيمان لوجد نفسه غارقاً في أوحال الصراع مع الذات والعالم، وهو عين الاغتراب. أما الشاعر فهو يجهز نفسه للأسوأ وهو الموت بدون وجل ولا صدام مع أحد، يقول:

وإنْ يَنلْ أحدٌ مِنّا مَنيَّتَهُ فما الذي في قضاءِ اللهِ يَصنَعُهُ

---

[264] سورة الفجر، الآيتان15-16.
[265] سورة الأنعام، الآية148.

الخاتمة

انطلــق الباحــث مــن قصــيدة شــهيرة فــي الأدب العربــي، هــي قصــيدة "لا تعذليــه" للشــاعر العباســي ابــن زريــق البغــدادي وجعلهــا مرتكــزاً ومــادة للبحــث فــي موضــوع أدبــي فلســفي هــو الاغتراب،وانتهــى منهــا فجــاءت هــذه الخاتمــة تحتوي على نتائج هذا العمل.

النتائج:

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج عامة وخاصة في هذا الموضوع، ويمكن ترتيب أهمها في نقاط محددة كما يأتي:

1- غلب معنى الغربة الجسدية والسفر على المقصود بالغربة في الثقافة العربية. ولكن تمّ تناول المصطلح أيضاً بمعاني الاغتراب النفسي والاجتماعي والديني لدى أدباء وفلاسفة ومتصوفة مسلمين، كالتوحيدي وابن عربي وابن باجه، بل إننا نستطيع تلمس تلك المعاني في الشعر الجاهلي والإسلامي..

2- مصطلح الاغتراب باستخدامه الأدبي المعاصر هو ذو نشأة غربية، وتراوح المقصود به بين كونه تعبيراً مأسوياً عن التصادم مع الواقع، مهما كان نوعه وشكله،

وبين كونه حلماً رومنسياً بأرض جديدة، وبعالم مثالي جديد، عالم مليء بالحلم والجمال.

3- لمفهوم الاغتراب أنواع أو مضامين متعددة، أهمها الاغتراب النفسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والديني، وكلها تصب في النهاية بدرجات متباينة في الاغتراب النفسي.

4- أنكر بعض الباحثين نسبة قصيدة "لا تعذليه" إلى الشاعر العباسي أبي الحسن علي بن زريق البغدادي، برغم شهرتها التي طبقت الآفاق منسوبةً إليه.

5- تبين بالتحليل أن في القصيدة حقولاً اغترابية موضوعية وذاتية، تمثلت الحقول الموضوعية في غربة الجسد في السفر، وكذلك في الفقر والحاجة المادية؛ في حين تمثلت الحقول الذاتية في الضعف الشخصي، وفي فراق المحبوبة.

6- من خلال نظرة خاصة في الأخلاق الإسلامية، كما هي في النصوص الإسلامية، وقف الباحث على طائفة منها تسهم إلى حدّ كبير في دعم الشخصية المؤمنة في وجه الاستسلام لحالات الاغتراب العامة، فمن تلك الأخلاق الفردية: العفّة، والإباء، والالتجاء إلى الله، والاحتساب عند الله. ومن الأخلاق الاجتماعية: العدل، وصلة الرحم والجار، وعموم الإحسان، والأخوّة في الله، وتقوى الله والآخرة، والزهد في الدنيا.

7- تبيّن بالبحث أن الشاعر أفاد من تكوينه الإيماني الإسلامي في التصدي ما أمكنه لحالة الاغتراب العميقة التي حاصرته، فقد لجأ إلى يقينه وثقته بالله، وتحلى بخلق الحكمة والتبصر وبشكر الله المنعم، وبالصبر على ما أصابه من المحنة، وأخيراً بالاستسلام لقضاء الله وأمره.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- الكتاب المقدس، العهد القديم، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ط 1985.

3- إبراهيم، د. زكريا، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، بلا تاريخ.

4- ابن أبي خازم، بشر، ديوان بشر بن أبي خازم، تح د. عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ط 1379ه-1960م.

5- الألباني، محمد ناصر الدين، سلسة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1415ه-1995م، 7 مجلدات.

6- إمام، د. إمام عبد الفتاح، كيركيجارد رائد الوجودية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1982، جزءان.

7- باشلار، غاستون، جماليات المكان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1404ه-1984م.

8- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، شرح د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، اليمامة للطباعة والنشر، بلا تاريخ، 6 أجزاء.

9- بركات، حليم، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م.

10- البوطي، د. محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر المعاصر-بيروت، دار الفكر-دمشق، ط8، 1417ه-1997م.

11- البوطي، د. محمد سعيد رمضان، من الفكر والقلب، دار الفقيه، أبو ظبي، بلا تاريخ.

12- التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، بلا تاريخ.

13- الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403ه-1983م.

14- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، الحيوان، تح عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط2، 1385هـ - 1965م، 8أجزاء.

15- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط 2019م.

16- الجبوري، د. يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1407ه-1986م.

17- الجرجاني، علي بن محمد، معجم التعريفات، تح محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة–دبي، بلا تاريخ.

18- جعفر، محمد راضي، الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، دار المعتز، عمّان، ط1، 2013م-1434ه.

19- جهامي، د. جيرار، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1988م.

20- الحاوي، إيليا، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م.

21- ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1963م.

22- الخشروم، عبد الرزاق، الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط 1982.

23- خليفة، عبد اللطيف محمد، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2003.

24- الخولي، د. يمنى، العلم والاغتراب والحرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1987م.

25- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط ورفيقيه، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط2009م-1430هـ، 7 أجزاء.

26- أبو دلامة، زند بن الجون، ديوان أبي دلامة، تح د. إميل يعقوب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1414هـ-1994م.

27- ابن ذريح، قيس، ديوان قيس بن ذريح، شرح عبد الرحمن مصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1425هـ-2004م.

28- رجب، د. محمود، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1988م.

29- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1979م، 8مجلدات.

30- زكي، أنور، الاغتراب والعودة إلى الله، دار الثقافة، القاهرة، بلا تاريخ.

31- زهران، د. سناء حامد، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1424ه-2004م.

32- زليخة، جديدي، الاغتراب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، العدد8، جوان، 2012.

33- السباعي، د. مصطفى، التكافل الاجتماعي في الإسلام، دار الوراق-دار ابن حزم، بيروت، ط 1430ه-2010م.

34- السبكي، تاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تح د. محمود الطناحي ورفيقه، هجر للطباعة والنشر، ط1413ه-1992م، 10أجزاء.

35- السراج القاري، جعفر بن أحمد، مصارع العشاق، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، بلا تاريخ. ج1ص23.

36- سري، د. إجلال محمد، الأمراض النفسية الاجتماعية، القاهرة، عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط1، 1424ه-2003م.

37- شيخاني، سمير، من حصاد الفكر العالمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982م.

38- الصائغ، د. عبد الإله، الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنيّة. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط1، 1997م.

39- الصفدي، صلاح الدين، خليل بن إيبك، الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط ورفيقه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420ه-2000م، 29جزءاً.

40- صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، ط بلا تاريخ، 3 أجزاء. ج1ص52

41- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط 1364ه.

42- العبد الرحمن، د. سعاد عبد الوهاب، الاغتراب في الشعر الكويتي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، الحولية الرابعة عشرة، 1414ه-1994م.

43- ابن عديّ، يحيى، تهذيب الأخلاق، تح سمير خليل اليسوعي، مطبعة مركز التراث العربي المسيحيّ، بيروت، ط 1993م.

44- ابن عربي، محيي الدين، محمد بن علي، أبو بكر، الفتوحات المكية، تح د. عثمان يحيى، مراجعة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1405ه-1985م، 14 مجلداً.

45- العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط1، 1371هـ-1952م.

46- عيد، د. محمد إبراهيم، علم النفس الاجتماعي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2000م.

47- فروم، إريك، فنّ الحبّ، تر مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار العودة، بيروت، ط 2000م.

48- فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، التعاقد العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 1996م.

49- الفلاحي، د. أحمد علي، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، دار غيداء، عمّان، ط 2013.

50- الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1426ه-2005م.

51- القيسي، د. نوري، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، الكويت، مج15ج1، 1428ه-2007م.

52- الكنعاني، نعمان ماهر، شعراء الواحدة، دار الجمهورية، بغداد، ط 1967م.

53- لوكاتش، جورج، جيته الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1942م.

54- مبروك، أمل، مشكلة الإنسان دراسة في الفكر الوجودي، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر، ط2، 2004م.

55- مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 1425هـ-2004م.

56- مجموعة مؤلفين، معجم المصطلحات الأخلاقية، مركز باء للدراسات- بيت الكاتب، بيروت، ط1، 2006م.

57- مساعدية، لزهر، نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 1434ه-2013م.

58- ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

59- النسائي، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، تح رائد بن صبري، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1436ه-2015م.

60- النوري، قيس، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد الأول، 1979.

61- النووي، محيي الدين، يحيى بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج. شرح النووي على مسلم، بيت الأفكار الدولية، عمّان–الرياض، بلا تاريخ.

62- الهذلي، أبو ذؤيب، دبوان أبي ذؤيب الهذلي، تح د. مطانيوس بطرس، دار صادر، بيروت، ط1، 1424هـ- 2003م.

63- الوأواء، أبو الفرج، محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، ديوان الوأواء الدمشقي، تح د. سامي الدهان، دار صادر، بيروت، ط2، 1414ه-1993م.

64- وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

65- وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، ط 2007م.

66- يوسف، محمد عباس، الاغتراب والإبداع الفني، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2005.

KİŞİSEL BİLGİLERİ

ORCİD	
Adı Soyadı	HÜSSEIN SALAHALDEEN HASSAN SAEED
Doğum Yeri	
Doğum Tarihi	

LİSANS EĞİTİM BİLGİLERİ

Üniversite	KERKÜK Üniversitesi
Fakülte	Eğitim fakültesi
Bölüm	Arap dili

YÜKSEK LİSANS EĞİTİMİ

Üniversite	Çankırı karatekin üniversitesi
Enstitü	Sosyal Enstitüsü
Anabilim Dalı	Arap dili

İLETİŞİM

Adres	
E-mail	